قضايا الأدب ISSN: 2602- 7305
المجلد الرابع/العدد الثاني السنة: 2019

الخطاب النقدي وصانعوه
في وجاهة الحجاج النقدي

د. نصيرة علاك

المركز الجامعي - تيبازة

تاريخ الإرسال: 2019/03/11	تاريخ القبول: 2019/12/28

ملخَّص :

لم يتناهَ الحديث عن الخطاب النقدي، ولا يمكن اعتبارُه مسألة نهائية مفروغاً منها، إذ أنّ المفهوم الذي يحيل عليه هذا المصطلح هو قيد البناء والصياغة، وذلك مهما تكن الثقافة التي ينتمي إليها روادُه. ولا يمكن تحديده بعيداً عن المساهِمين في تشكيله. وأقلّ ما يدلّ على مصداقية هذا الزّعم هو تطلّع هؤلاء إلى إكسابه قيما متزايدة ضمن المنظومة المعرفية والثقافية التي يصدرون عنها ويستشرفون العمل في إطارها. يتعرّض مقالنا في إطار هذا التقديم لإشكالية النسبية التي تطال مفهوم الخطاب النقدي المتصل مِن جهة بالممارسات النقدية (التطبيقية)، ومن جهة أخرى بصانعيه، لأننا نؤمن بفكرة تبعية الخطاب النقدي لرموز ثقافية تضطلع به من زوايا مختلفة وباعتماد حجاج يعتبَر وجيهاً في مسألة تحديد الخطاب النقدي والسؤال المتعلّق بعناصِر تميُّزه.

الكلمات المفاتيح:

الخطاب النقدي؛ الثقافة؛ الممارسة النقدية؛ غائية الخطاب النقدي؛ المنظومة المعرفية

Résumé

المنارة للاستشارات

Le propos sur Le discours issu des pratiques propres à la critique, génère encore des discordes. C'est pourquoi, il serait très inapproprié d'envisager une conception définitive quant à la définition de ce concept. Le présent article tend à décrire ce paradoxe en posant d'abord que le discours, quelque soit son objet et sa portée, reposerait sur son détenteur qui lui accorderait une crédibilité et lui procurerait un certain caractère justificatif. L'objectif de notre analyse sera de reconsidérer l'importance de l'argumentation dans le discours qui concerne le champ de la critique littéraire.

Mots-clés /

Discours de la critique – Culture – Les pratiques de la critique – Finalité du discours à caractère critique – Le système de connaissance

مقدِّمة

ننطلق ـ في مقالنا هذا ـ مِن فرضيّة مؤدّاها أنّ *الخطاب النقدي* يتميز بشدّة تأثّره بشخصية مَن يتولّى شأنَه سواء في طابعه التخصصي أو فيما يتعلق بصورته وواجهته الأكثر عموميةً وتعميماً. وليس ذلك نتيجة انزلاقه في وحل المزاجية ولا من باب شدة تعرضه لنزوات التحول وما يعادله من التذبذب والانصهار، والذي نعلم أنّ النقد بوصفه متعالياً يحرص على تزكية ساحته من شوائب الذاتية؛ ولكن نظراً لميزة **المَرجِعية** التي يلتمسها القارئ فيه. فيزداد تعلّق هذا الأخير بشيءٍ متميِّز عن غيره اسمه (الخطاب النقدي الذي ليس مجرّد آلية نقد) كلّما اتضحت صورة تلك **الشخصية ـ المرجِعية** التي تكون قد فرضت نفسَها على الساحة الثقافية والفكرية محليّاً أو قطريّاً أو عالميّاً، وآنيّاً أو تاريخيّاً؛ وكشأن كلّ خطاب تتنوع

المنارة للاستشارات

مرجعياته[1]. وهذه السمة الوجيهة في تخصيص الخطاب النقدي مرتبطة بفاعلية الحجاج الذي يسوده ويستغرقه. غير أن الأنسب هو التوجه نحو تحديد وظائفه التي يمكن تمييزها من خلال ثلاثة أبعاد، أو ثلاثة أدوار يضطلع بها. أولها وظيفة بلورة معرفية ابستمولوجية يقتضيها فضاء التخصص. يعقب هذه الوظيفة دور رائد *الخطاب النقدي* في التوعية والتعليم ونشر المعرفة النقدية وتبسيطها وتعميمها وتفسيرها وتأويلها والتعليق عليها. ويتوسّط الوظيفتين ما يؤديه الإعلامي من جهود الترويج للممارسات النقدية متعددة الأبعاد في سياق تحليله للأوضاع العالمية ومقاربتها ضمن انشغالات المواطن العادي وفي إطار التزاماته المهنية مع إعلان تكّهناته التسويقية. ولتبيان الأبعاد والوظائف يهم الوقوف ـ أولا ـ في إحاطة مفهوم " الخطاب " في المبحث الآتي من هذا المقال.

1. مطاطية مفهوم *الخطاب*

1.1 الافتتان بهالة الخطاب

نسجّل في الحياة الثقافية العربية الرّاهِنة اهتماماً بـ " الخطاب " بالغاً وواسعَ النّطاق إلى حدّ الافتتان به[2]. وعلى الرّغم من هيمنة هذه المزايا التي لا يستطيع القارئ إلاّ أن يسلِّم بها، فقد أدّى هذا الإقبال المتزايِد على معالجته إلى حدوث كثيرٍ من الاضطراب. ولا يزال المفهوم الذي تُحيل عليه كلمة (الخطاب) تكتنفه

[1] عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت) ـ دار الاختلاف (الجزائر)، 2010، ص.52.

[2] في حين لم يستأثِر هذا المفهوم بعناية القدامى عنايةً بنفس الشدّة التي لمسناها عند المحدثين.

المنارة للاستشارات

غشاوة كثيفة من الضبابية. ذلك أنّه كلّما استطرد البحث فيه إلا وشهد ميلاد مسائل ثانوية من حوله تزيده ميلاً إلى التعقيد إن لم نقل البلبلة والالتباس.

وفي مثل هذا الوضع المعقَّد وتمهيداً لفهم الأسباب والظروف الخاصّة التي هيّأت هذا الاهتمام المفاجِئ والمكثّف والمثير للجدل والدّهشة، ووسط الاختلافات الجوهريّة والهامشية بين الدّارسين وتصاعد التبايُن في وجهات نظرهم؛ نفترض ـ من جهة ـ أنّ ذلك يرجع عموماً إلى تعدّد المجالات التي يتجلّى فيها هذا المفهوم، وهو ما كرّس طابعَه المطاطي ـ من جهة ثانية. وعليه، يضحى كلّ بحث في مفهوم " الخطاب " ـ من الضّرورة ـ بحثاً إشكاليّاً داخل مجالٍ معيّن، أي ينبع من إشكالية معيّنة في إطار ذلك المجال المتفرِّد الذي قد يلقى فيه هذا المفهوم مصيراً مغايِراً نظراً لملابساته الخاصة. كما تمسي كل محاولة لتقديم مقاربة كافية للخطاب انطلاقاً من حقل معرفي واحد أمراً عسيراً، بل انطلاقاً من تضافر حقول معرفية متعددة ومتشابِكة، نظراً لأن كلّ حقل من هذه الحقول يكون قد قدم بخصوص مفهوم الخطاب مجموعة من القضايا لا تستقيم دراسة الخطاب دونها أو بالتغاضي عنها[3]. هذا، علاوةً على ما لمفهوم الخطاب من صلات لطيفة وشائكة في آنٍ بمفاهيم كلٍّ مِن " النص " و" الجملة " و" الملفوظ " و" اللغة " و" الأدب

[3] ينظر: ربيعة العربي، الحدّ بين النصّ والخطاب، علامات، ع.33، مكناس (المغرب)، يناير 2010، (ص.33 ـ 46)، ص.44.

المنارة للاستشارات

"[4]. بهذا فلا يفتأ البحث في مفهوم *الخطاب* يُسفِر عن تعدد التعاريف بحسب تعدد المفكِّرين والدّارِسين الخائضين في مجالاته وهي التعاريف التي تتّكِئ في غالب الأحيان على طبيعة الاتجاه الفكري الذي يكون هؤلاء قد أخذوا منحاه[5]. ومع ذلك، فغالباً ما سجّل العياءُ على لفظَ (الخطاب)؛ وطبيعي أن يلحقَه العياء فيفقد كلّ دلالة، أو على الأقل لا يعود يعني الشيء الكثير، بل إنه يكاد – في معظم الأحوال– لا يعني إلا ما يدلّ عليه لفظ (مقال)[6] ـ كما سنرى أدناه.

وبالتالي يستوجِب الأمرُ ـ أوّلاً ـ تحديد المجال الذي يعنينا، وهو مجال النقد ـ كآلية ـ و(الثقافي) باعتبار إشكالية المثاقفة التي نعالجها ههنا. فعلينا ـ إذن ـ أن نُخضِع التعريفات المقدّمة لمفهوم " الخطاب " للفحص العريض ليس من باب الترف الفكري ولكن في حدود تكامل الرؤى نحو فهم *الخطاب النقدي* وخصوصياته. جديرٌ بالإشارة ـ هنا ـ إلى أنه حتى لو افترضنا أيضاً ـ من جهة ثالثة ـ أنّ الاختلاف النّاجِم عن تنوّع المجالات حادٌّ جدّاً، فالغالبية الساحِقة ممّن استخدم مصطلح (الخطاب) ـ مهما تكن زاوية كلٍّ واحد ـ تتفق حول هذا القدر

[4] ينظر تفصيل الفروق بين هذه المفاهيم: أسوالد ديكرو، قوانين الخطاب، ترجمة المنصف عاشور، الحياة الثقافية، ع.41، تونس، يوليو 1986، (ص.192 ـ 204). ولاسيما بين مفردات هذا الثالوث (الجملة والملفوظ والخطاب).

[5] ينظر ـ على سبيل المثال ـ عرضٌ لمواقف ميشال فوكو تحاه مفهوم الخطاب: مبروكة الشريف جبريل، الخطاب عند فوكو، المعرفة، ع.457، دمشق، أكتوبر 2010، (ص.33 ـ 53).

[6] ينظر: عبدالسلام بنعبد العالي، بين بين، دار توبقال، الدار البيضاء، 1996، ص.78.

المنارة للاستشارات

الأدنى الذي يشكّل المفهوم المتجانِس المتناوَل في بحثنا هذا، وهو ما نبتغي استخلاصه ـ تِبعاً ـ من الاستعراض الآتي الممهَّد بوقفة تأمّلية عند المصطلح:

2.1 مصطلح (الخطاب)

إن التّجريد الاصطلاحي[7] الذي عرفه مصطلح " الخطاب " لا يزال حتى اللّحظة موضع جدل كبير لم يحسم بعد. وبالتالي ليس أحسن من مقاربة هذا المصطلح ـ أولاً ـ عن طريق حقليْه المعجمي والدلالي (المفهومي).

1.2.1 مِن التسمية إلى المفهوم

لقد استقرّت تسمية (الخطاب) في الثقافة العربية على الرغم من كثرة الخائضين في مفهومها بحسب الأهواء في بعض الأحيان، ومع توقّع تعرضها ـ وسط بعض التأويلات ـ لمنافسة مرادفاتها اللغوية كتسميات (الكلام) و(الحديث) و(الحوار)، ونتيجةً لارتباطاتها السياقية المتنوّعة؛ ولاسيما إذا اعتبرنا المحاولات السائدة في إطار مقابلة مفهوم " الخطاب " بمفهوم " النص ". لذا، فمع هذا الاستقرار لا حاجة لنا إلى ادعاء افتقار تلك الثقافة إلى تسمية يُحتج بها على أصالة المفهوم في ظلها.

بيد إنّ مصطلح (الخطاب) في حاجة أكثر إلى مراجعات أو حوصلات تهتم بجملة المفاهيم التي نتجت عن تعدد المجالات التي احتوته والتطبيقات التي

[7] *التجريد الاصطلاحي* أو المفْهَمة (Conceptualisation) هو محصّلة عدد من القيود التعريفية التي تستخلَص من عيّنة الاستعمالات التي يرتبط بها المصطلح والسياقات التي يقترن بها. ينظر: عبد السلام المسدّي، ، قاموس اللّسانيّات: عربي ـ فرنسي، فرنسي ـ عربي (مع مقدّمة في علم المصطلح) ..، ص.21.

المنارة للاستشارات

استأثرت به والكتابات التي أخذ يغزوها منذ أمد طويل وعلى مستويات متنوعة. فهو من هذه الناحية متعدد الدلالات، فليس أهم من إيضاح صورة ذلك المفهوم أمام هذه التعددية.

2.2.1 التحليل الصّرفي المعجمي الدلالي

لقد أورد ابن منظور أنّ « الخطاب والمخاطبة، مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان »[8]. نلاحظ في هذا القيد التّعريفي ـ على مستواه اللّغوي البحت ـ صفة *التبادل والتفاعل* التي ركّز عليها ابن منظور، وهو ما أصرفه إلى أن يقرن بين صيغتيْ (المجرّد والمزيد = خطاب ومخاطبة). كما يدلّ على أنّ (الخطاب) وحدة تواصلية إبلاغية، ناتِجة عن مخاطب معين وموجهة إلى مخاطب آخر في مقام وسياق معينين. يدلّ ذلك أيضاً على صفة *التواصل* التي قصدها اللّغوي المعجمي وشدّد عليها بعدوله إلى مصطلح (الكلام).

وكذلك يشعّ من هذا التعريف اللّغوي معنى اتخاذ الموقف الذي يحيل عليه لفظ (المراجعة) وكذا الاستعمال الدّقيق المحصور في تعدية المخاطبة بالباء (خاطبه بالكلام): وهو ما يتيح ـ من جهةٍ أخرى ـ فرصة التفكير في ما يختلج في نفس المخاطِب من أكثر من احتمال، فلا يفصح كلاماً وخطاباً إلاّ بما يشاء ويقدر

[8] ابن منظور، لسان العرب، قدم له الشيخ عبد الله العلالي، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت) [دار الأبحاث للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2008]، ج.1، مادة (خطب)، ص.261.

المنارة للاستشارات

عليه. وبالتالي يحمل مفهوم الخطاب ما يقع فيه صاحبُه من الموقع البيني أي بين مقتضى الحال وحريّة الاختيار.

3.1 تكريس مفهوم " الخطاب "

1.3.1 الظلال الغربية

على الرّغم من اكتراث المعاجم العربية القديمة بمصطلح (الخطاب)، فإنّ المفهوم لم يعرف تكريساً وترسيخاً ورواجاً في الثّقافة العربية إلاّ في حدود ما عرفه مِن الأمر نفسه ضمن الثقافة الغربية ثم بالموازاة معها.

وفي هذا الصدد، نلفي أغلب المقابلات الأجنبية الشائعة في لغات الثّقافة الغربية مأخوذة من أصل لاتيني، وهو الكلمة المعتبرة في مقولتها الاسمية *(Discursus)* المشتقَّة بدورها من الفعل *(Discurrere)* الذي يعني " الجري هنا وهناك " أو " الجري ذهاباً وإياباً ". وهو ـ كما يحقِّق جابر عصفور ـ فعلٌ يتضمّن معنى التّدافع الذي يقترِن بالتلفّظ العفوي، وإرسال الكلام، والمحادثة الحرة، والارتجال، وما شابه ذلك من المعاني[9]. ولا يزال الناقد يتّكئ على هذا التأصيل الغربي حين يصرِّح ـ لاحقاً ـ بأنّ: « " الخطاب " مصطلح شاع في

[9] ينظر: جابر عصفور، آفاق العصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص.64.

المنارة للاستشارات

الكتابة العربيّة المعاصِرة، ترجمةً لكلمة *Discourse* الإنجليزيّة أو *Discours* الفرنسيّة أو *Diskurs* الألمانيّة، وأصبح يقترن باستخدامات متعدِّدة »[10].

وعليه، فقد سبق للمفكرين الغربين أن كرّسوا هذا اللفظ، وممن يذكر جابر عصفور في هذا الصدد رونيه ديكارت وباروخ سبينوزا وجان جاك روسو وفرديناند دي سوسير ويورغن هابرماس ورولان بارت وميخائيل باختين وميشال فوكو وواستن وزليغ هاريس ..الخ[11]. انطلاقاً من هذه التقاليد الغربية، يرتبط الخطاب بكل ما يقال أو يكتب في مجتمع من المجتمعات، يرتبِط بالحديث اللفظي وغير اللفظي، بما يقال وما لا يقال، فيتحول من اللغة المسموعة إلى اللغة المرئية، إلى لغة الصمت والتخاطب غير اللفظي، يرتبط بالموسيقى والأوبرا والباليه والأدب والفن التشكيلي والسينما والإعلانات السريعة في التلفزيون وكما يرى فوكو فإنّ المجتمع هو حاصل جمع الخطابات الموجودة فيه، تلك الخطابات التي ينتجها المجتمع وتنتجه أيضا، كما أن أية نظرية عن الخطاب هي بالضرورة نظرية عن المجتمع وعن أنماط القوة والسلطة والشرعية الملازمة للمعرفة الخاصة فيه[12]. وسنجد مظاهر لهذا التعريف فيما أنبأ به الناقد ولكن بتسمية مغايرة وهي (الخطاب الثّقافي)، من حيث نستخلص مفهوم (الخطاب) وصولاً إلى قوله: «

---

[10] جابر عصفور، نحو خطابٍ ثقافيٍّ جديد، ضمن نَحوَ ثَقافة مُغايِرة (مقال منشور بجريدة الحياة 16 يوليو 2003)، سلسلة الفِكر، الهيئة المِصريّة العامّة للكِتاب، القاهِرة، 2008، (ص.205 ـ 224)، ص.221.

[11] ينظر: جابر عصفور، آفاق العصر ..، ص.72.

[12] ينظر: ميشال فوكو، نظام الخطاب، ضمن جنيالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، ط.2، دار توبقال للنّشر (سلسلة المعرفة الفلسفيّة)، الدار البيضاء، 2008، (ص.05 ـ 42).

المنارة للاستشارات

[..] ومن هذا المنظور، يتّصِف كلُّ خطابٍ بدرجة من شمول الرؤية التي تصله بمعنى الاستراتيجية، ويتضمّن عناصِر ومكوّنات متباينة، تجمع بينها وحدة التنوّع ووحدة التوجّه الوظيفي أو الأهداف »[13].

2.3.1 اللّغة والخطاب والنصّ

مِن شأن القيد اللّغوي السابِق أن يوضِّح لنا لماذا يشدّد بعض اللِّسانيِّين على شأن المخاطِب (المتكلِّم / المرسِل) وإظهار مكانته. ويبدو أنّ أنسب مثالٍ في هذا الباب ما لخّصه العالم ذو الاتجاه التّوزيعي جان ديبوا (Jean Dubois) وغيره في قولهم: « الخطاب هو اللغة التي تتجلّى فيها نفوذ المتكلم بشكلٍ واضح في حال الاستعمال »[14].

لقد كانت مفاهيم " البنية " و" النسق " موضع اهتمام اللسانيين. غير أنّ الاهتمام المفرط بها كإشكالية قديمة وجديدة في آن، مالت ببعضهم ـ في الأقلّ على نحو أوّلي ـ إلى تأجيل مشكلة الخطاب[15]. وذلك إلى حين بزوغ تخصّصات فرعية أولت الاهتمام لمفهوم " الخطاب " الذي أخذ يُدرَس ضمن ما يسمى " تحليل الخطاب " و" لسانيات الخطاب " و" نظرية التلفظ "؛ علاوةً على "

[13] جابر عصفور، نحو خطابٍ ثقافيٍّ جديد ..، ص.221.

[14] Jean Dubois & alii, Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse, Paris, 1973, p.156.

[15] ينظر: بول ريكور، اللّغة خطاباً، ضمن نظريّة التّأويل: الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، ط.2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، 2006، (ص.23 ـ 54)، ص.25.

المنارة للاستشارات

اللِّسانيات الاجتماعيّة " التي تتمثّل صلاحياتها بالنسبة للخطاب في دراسة محتويات الملفوظات بوصفها تنهض بوظائف معيّنة، على غرار المفردات والعبارات السياسية والأخرى التقنية، الخ[16]. وقد تمخّضت عن كلّ هذه الفروع مفاهيم ـ (لسانية في عمومها) ـ ذات آثار مكينة على الخطاب الأدبي خصوصاً. وتظهر وجاهة الخطاب ـ على كلٍّ ـ في كونه يشير دائماً إلى مجالٍ معين (سياسة/اجتماع/نقد ..الخ)[17]، وذلك بمقتضى آلياتٍ تجعل من تحليله قضيّة فيها من البحث عن الأدوات والسعي لإيجاد الإجراءات اللاّزمة ما يحتاج إلى معرفة طبيعة ذلك المجال[18]. من هنا اتّخذت مريم فرنسيس[19] من تسميات " عملية القول "، " آلية الكلام "، " وآلية التخاطب " ترجمات مترادفة ومتقاطعة بعض الشيء لما يدعى في الفرنسية بـ " Enonciation " وفي الإنكليزية بـ " Enunciation "، ومن منظور اللساني الفرنسي إميل بينفينيست E. Benveniste. وفي أعقاب نشر أفكار هذا العالم اللساني الفقيه اللغوي الفذّ،

[16] يُنظَر: Jean Dubois & alii, op.cit., p.444.

[17] يُنظَر: Antoine Culioli, Linguistique du discours et discours sur la linguistique, Revue Philosophique de la France et de l'Etranger, T. 168-n° 4 (Le langage et l'homme), Ed. PUF, Paris, Octobre-décembre 1978, (p.481-488), p.482.

[18] يُنظَر: Louis Guespin, Types de discours, ou fonctionnements discursifs (Introduction), Langages, n° 41 (Typologie du discours politique), Ed. Armand Colin, Paris, Mars 1976, (p.03-12), p.06-07.

[19] مريم فرنسيس، في بناء النص ودلالته: محاور الإحالة الكلامية، سلسلة دراسات لغوية (2)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ص.18 . 19.

المنارة للاستشارات

قامت بحوثٌ في شتّى التخصُّصات اللغوية وغير اللغوية (علوم الاتصال والترجميات والإنثروبولوجيا والحاسوبيات والإشهار) آخذةً في الاعتبار سياقات تحصيل اللغة ملفوظاً شفويّاً كان أم في قناة ـ موازية أو متقاطعة مع الطابع الصوتي للغة[20].

ولما غلب التركيز في مفهوم الخطاب على معنى الإنتاج، أي إنتاج مبني على وعيٍ ثقافيٍّ؛ فإنّ إنجازات الخطاب وشعبيّته تظهر في شكل نصوص ذات أبعاد تراثية لا يستهان بها في مجال دراسة قضايا المثاقفة، كما يحدث أن تقحَم النصوص في مقامه[21]. وذلك لِما في النصّ ـ ولاسيما في بعده الكتابي ـ مِن قيَّمٍ مِن شأنها أن تُؤمِّن الانسجام الكلي للمقولات النقدية التي يرافِع لصالحها الناقدان اللذان سنعكف على دراسة خطابيْهما النقدي، وهما يراعيان اتجاهات القرّاء الذين يتوجّهان إليهم بخطابيْهما ضمن شبكة تلاقي خطابات غيرهما، ذلك أنّه على قدر أهمية المنتج يأتي المتلقي كطرف في المعادلة ـ كما يرى جيل دولوز (Gilles Deleuze)[22]. وجديرٌ بالذكر أنّ مفهوم " الإنتاجية " عرف ـ منذ أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات ـ في ظل حركة يجتمع أصحابها حول مجلّة تعتني بشؤون الأدب النظرية والتطبيقية هي مجلة "كما هو " (Tel quel) ترمي إلى

[20] ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي: نحو تصوّر نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز، عمان (الأردن)، 2014، ص.17.

[21] يُنظَر: باتريك شارودو ودومينيك مانغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008، ص.181.

[22] ينظر: جيل دولوز، المعرِفة والسّلطة: مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يافوت، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، 1987، ص.09.

المنارة للاستشارات

إعادة النظر في مفهوم النصّ الأدبي ويترسّمون له أبعاداً نظرية مغرقة في التشعّب والتجريد. فهم يؤكّدون ـ في تحديدهم للنص ـ على مفهوم " الإنتاجية النصية " ذاك الذي استعاروه من العلوم الاقتصادية. وهو ـ في نظرهم ـ الطاقة التوليدية الكامنة في اللغة لا يظهرها إلا التعهد باللغة واعتماد الإغراب والإشكال وقطع الصلة بينها وبين الأشياء والإنسان، بممارسة نوع من " الأدب الأبيض " (Littérature blanche) الذي يحاول تكسير نظام كلّ موروث الإنسان الثقافي واللغوي والفلسفي بل العلمي[23]. لكن لا يعني هذا أنّهم أصبحوا يعتقدون بوهم استقلال النص الأدبي بصفة مطلقة، فهو يظهر عندهم داخل عالم أدبي تسكنه مؤلفات قد وجدت من قبل[24]؛ وقد أطلق على هذه الظاهرة مصطلح (التناص) إذ يقع كل نص في مفترق طرق نصوص عدة، فيكون في آن واحد إعادة قراءة لها، احتداء وتكتيفا ونقلا وتعميما[25].

والنص بحسب الرأي الشائع هو ما يظهر من مساحة الأثر الأدبي، ومرتبط من حيث تكوينه بالكتابة[26]. ودائماً في إطار مفهوم الإنتاجية، فقد سعى الناقد محمد

[23] ينظر: حمّادي صمّود، معجم مصطلحات النقد الحديث، حوليات الجامعة التونسية، ع.15، تونس، يونيو 1977، (ص.125 ـ 159)، ص.151.

[24] ينظر: تزفيطان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ترجمة الحسن شعبان وفؤاد صفا، مجلة آفاق، ع.09/08، اتحادكتاب المغرب، الدار البيضاء، 1988، ص.31.

[25] ينظر: تزفيتان تودوروف وآخرون، في أصول الخطاب النقدي الجديد، ترجمة أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية العامة (سلسلة آفاق عربية)، بغداد، 1987، ص.104.

[26] ينظر: رولان بارت، نظرية النص، ترجمة منجي الشملي وآخرين، حوليات الجامعة التونسية، ع.27، تونس، يناتير 1988، (ص.69 ـ 97)، ص.69.

المنارة للاستشارات

مفتاح إلى الكشف عن دينامية النصّ بتوظيفه مفاهيم نظرية تعضد هذا المفهوم حينما تطرّق إلى نظرية التواصل والعمل التي تستند إلى وجود الخطاب[27]. هذا، مع العلم أنّ مفهوم " النص " هنا يشمل الوحدات اللّغويّة المنطوقة والمكتوبة[28]؛ وهو ما استدعى الاهتمام بنحو النصّ الذي تحمّس له محلِّلو الخطاب كما لا ينفكّ جان ميشال أدام (Jean-Michel Adam) يشير إليه[29]. غير أنّه لا ندّعي هنا أنّ التمييز بين مفهوم (النص) ومفهوم (الخطاب) قائمٌ فقط على الطّابع الكتابي الذي يغلب على الأوّل والطابع الشفويّ السائد في الثّاني، بل لا نرغب في أن يُعمَّم هذا الاستنتاج، إنّما أردنا بالشفوية والكتابة الحالَ التي يكون عليها الحكي ـ مثلاً، لكونه يؤثَر في الغالب عن طريق الشفوي ثم يتصدّى كاتبٌ من كتّاب الثقافة التي يشيع فيها لتدوينه وتنظيمه بأسلوبه وتنميطه وفق معايير تُكتَسَب بفعل العادات الترسيخية والترسيمية. وقد سبق للنقاد القدامى أن بحثوا علاقة التناظر بين البعدين من حيث الخاصيات التي يجنح إليه أحدهما في ضوء الآخر، كما يبيّن ما أورده ابن قتيبة في هذا الباب قائلاً: « وليس حُكمُ الكِتَابِ [...] حُكمَ الكلام؛ لأنّ الإعراب لا يَقبُح منه شيء في الكِتابِ ولا يَثقُلُ، وإنّما

[27] ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، 1987، ص.30.

[28] ينظر: محمّد مفتاح، النصّ: مِن القِراءة إلى التنظير، سِلسلة المكتبة الأدبيّة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء (المغرب)، 2000، ص.24.

[29] يُنظَر على سبيل المثال: Jean-Michel Adam, Types de textes ou genres de discours ? comment classer les textes qui « disent de et comment faire » ?, Langages, n° 141 (Les discours proceduraux), Ed. Armand Colin, Paris, mars 2001, (p.10-27), p.14.

المنارة للاستشارات

يُكرَه فيه وحشيُّ الغريب، وتعقيد الكلام [...] »[30]. لكن هذا كلّه لا ينفي وجود أبحاث أخرى لا تركن إلى الأفكار المسبقة وتذهب بكلِّ جرأة إلى إعادة النّظر في هذه الأخيرة بحيث يُمعِنون فيما ظاهِرُه تقليد وباطِنه قد يكون شيئًا آخر بتمييز دور الكتابي وتغيّر قنوات الاتّصال[31].

كما يعدّ الخطاب إدراجاً للنصّ في سياق تواصلي محدّد[32]. وليس أدلّ على صحّة هذه المقولة ما أخذت قرائنُه تتضافر في ظل ما يشهده النص من تجلٍّ لاندماج الخطاب فيه بفضل ما يتيحه عامل التفاعل البشري الذي يقتضي حضوراً مشتركاً[33]، وهو ما لا يعدمه حتى البعد الرقمي للنص الذي تكرِّس خطابيته ما يقوم من التفاعلية بفضل التقنيات التكنولوجية الجديدة التي تفتح في الواقع إمكانيات جديدة للقراءة[34]. واستدعاء النص لفعل التواصل ليس أقلَّ شأناً

[30] ابن قتيبة، أدب الكاتِب، تحقيق وشرح وفهرسة محمّد الفاضلي، دار الجيل، بيروت، 2001، ص.20. (إبرازُ الكلِمة هو مِن عندنا) وقد ثبّت *لسان العرب* هذا المعنى كما يُلاحَظ أسفلَه.

[31] ينظر: Catherine Kerbrat-Orecchioni, La conversation, Ed. du Seuil (Coll. MÉMO), Paris, 1996, p.39.

[32] ينظر: ربيعة العربي، الحدّ بين النصّ والخطاب ..، ص.44.

[33] ينظر: عزّة شبل محمد، علم لغة النص: النظرية والتطبيق، ط.2، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص.49. ونخصّص هذا التفاعل بنعت (بشري) توطيناً لفكرة التمييز بينه وبين (التفاعل الآلي) أو (التفاعلية) الذي كرّست له اللغة الفرنسية مصطلح (Interactivité) في مقابل مصطلح (Interaction) الدّال على المفهوم الذي نقصده ههنا.

[34] وذلك على عكس ما يُظنّ من انقراض القراءة نتيجة اكتساح النص الرقمي لمجال الكتابة. ينظر: مايكل هووي، التفاعل النصّي: مقدِّمة لتحليل الخطاب المكتوب، ترجمة ناصر بن عبد الله بن غالي، دار النشر العلمي والمطابع ـ جامعة الملك سعود، الرياض، 2009، ص.53.

المنارة للاستشارات

وحاجةً من استدعائه مِن قِبل الخطاب، ذلك أن كلّ النصوص هي جزءٌ من الحوار الصريح أو الضمني، إنما تعمل هذه النصوص ضمن شبكة علاقات وداخل آلية التعاون، سنَدُها فعل العمل الجماعي المشترك[35]. ويمنح فعل التواصل هذا للنص ما يمنحه للخطاب في ضوء الفعل الكلامي وفي إطار تجليات نظامية اللغة، ما يدعى العامل الذي قد يكون المتكلم (المؤلِّف)، وقد يكون السامع (القارىء) على أساس المقصد والمعرفة المتبادَلة وهو ما يحتاج إلى ضبط نوع العلاقة الحاصِلة بينهما من حيث الغاية خصوصاً، علاوةً على المقام والمكانة الاجتماعية للمؤوِّلين ـ كما سيأتي إيضاحه أدناه مع التعاقد التواصلي.

ونشير هنا إلى أنّه على الرّغم من كثرة العلوم التي تعنى بالنص، فإنّ المهتمين بتحديد مفهوم النص الأدبي ينطلقون دائماً من تسجيل ما يتاح لهم من مشاهدة النقص في هذا المجال[36]، مع أنّ النص الأدبي ـ من جهة ـ قد لا يبوح بجميع أسراره، ومن جهة أخرى قد ينظَر إليه بوصفه ليس له ما يخفيه لكونه ناصع البياض كالثّلج؛ فما على الدّارِس إلاّ أن يقوم بتشريحه أي تقطيعه وفق ما يواتيه من الأدوات والإجراءات، بل ما على القارىء العادي إلاّ أن يُمعِن في قراءته ويعمد إلى تعريته[37]، وذلك ما دام للفرد حضورٌ في النصّ يمثِّله القارىء في النصّ

35 ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص ..، ص.31.

36 ينظر: حمّادي صمّود، معجم مصطلحات النقد الحديث، حوليات الجامعة التونسية ..، ص.149.

37 ينظر: Jean-Paul Aron, Les modernes, Ed. Gallimard (Coll. Folio- Essais), Paris, 1984, p.222.

المنارة للاستشارات

الذي يهيب لهذا الأخير بتجربة[38]، لذلك أضحى بإمكان الدلالة النصية أن تؤسِّس لنسق خاص تابع أو متجاوز للنسق اللغوي نظرا للبعد البصري الذي تستدعيه حاسة القراءة.

ولما كان مصطلحُ (الخطاب) كثيرًا ما يأتي كمرادِف لمصطلح (الكلام) فيصحّ اعتبار طابعه الشفويّ[39]. ولكن هذا المنحى يظلّ ناقصاً بدون اعتبار الخطاب مرتعاً لمضمونٍ معيّن وحاملاً لرسالة ما؛ وحتى المهتمّين بالخطاب الديني ـ ولاسيما في منحاه الدعوي ـ ينطلقون من زاوية اعتباره رسالة ذات هدف ودلالة، تسلِّم بقضيّة قمينة بالعناية ولو على المستوى الخطابي، بيد أنّه يقوم أساسا على " الكلام "، منطوقاً كان أو مكتوباً، ويمثِّل وجهة نظر محدّدة من الجهة التي توجِّه " الخطاب " ويفترَض فيه التأثير في السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف والملابسات، التي يكون قد صيغ فيها بدلالة الزمان والمكان[40]. وفي النظر إلى الخطاب على أنه كلام أو حديث، دلالة وجيهة مؤدّاها أنه يرتبط بالفرد الذي يصوغه وفق رؤيته إلى الأشياء، والأسلوب المستعان به، وبالحجاج الذي تُدعَّم به

[38] يُنظر: نبيلة إبراهيم، القارىء في النصّ: نظرية التأثيل والاتّصال، فصول، م.05/ع.01 (تراثنا الشعري، ج.2)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، (ص.101 ـ 108)، ص.107.

[39] يُنظَر: ماكس بفوتسه ودجنار بلاي درسدن، نمط النص نمط تواصل: تقويم لوضع النص، ضمن علم لغة النصّ: نحو آفاق جديدة، ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشمس، القاهِرة، 2007، (ص.121 . 136)، ص.121.

[40] ينظر: بشير عبد الله المساري، الخطاب الدعوي، كتاب الأمة، ع.143، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، الدوحة (قطر)، جمادى الأولى 1432، ص.23.

المنارة للاستشارات

أفكاره. لذلك فليس من الغرابة أن نلفي ـ من جهة ـ تلاحم الأسلوبية مع تحليل الخطاب[41]، ونتعارف ـ من جهة ثانية ـ على تشابكهما بالتداولية في ظل موضوع " الخطاب " المشترك.

وكذلك يحدث إجراء مقابلة بين الخطاب واللغة، بحيث يحسن أن نوجّه استطلاعنا إليها لنجد في ضوئها وفي كنف الخطاب الأدبي خاصّةً، مَن يذهب إلى استحالة تجريد الإبداع من اللغة كأداة متواجدة خارج ذلك الإبداع، إذ أنّها تتطابق معه في الوقت الذي يتعالى عليها باسم الخطاب الذي يتمايل لسانه في أي اتجاه يبتغيه المبدع. وبناءً على ذلك تعتبر يمنى العيد الخطاب الروائي النموذج الدال على قوة تاثير اللغة على العمل الإبداعي علاوة على انتماء الحكاية المتضمنة فيه إلى هذا المكان أو إلى ذاك المجتمع[42]. وهذا يذهب في ذات الاتجاه الذي أدّى بمنذر عياشي إلى أن يشير في كثير من السياقات إلى أنّ اللغة تمثل المادة الخام للنصوص الأدبية بتشكلاتها المختلفة فليس الأدب إلا لغة، أي أنه نظام من الإشارات[43]. وفي ذات السياق لا يتوانى إدوارد الخراط أن ينفي وجود لغة تكون مستقلّة عن " العمل الإبداعي " هي لغة الكاتب، لأنّ حسب تصوره « ليس هناك شيء يدعى اللّغة بحدّ ذاته، بقدر ما هي خبرة واحِدة تحتمل اللّغة وتحتمل الشحنة

41 يُنظر: رابح بوحوش، الأسلوبيات في تحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة (الجزائر)، ص.37.

42 ينظر: يمنى العيد، في مفاهيم النقد وحركة الثقافة العربية، دار الفرابي، بيروت، 2005، ص.227.

43 يُنظَر: منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998، ص.123.

المنارة للاستشارات

الفكريّة والوجدانيّة ..الخ، التي تحملها هذه اللّغة »[44]. ويواصِل الخراط قائلاً: « وعليه لا أجد فاصلاً بين اللّغة وبين شحنتها. أو هكذا آمل »[45]، وذلك حين استحثّه سؤالٌ صاغه المحاوِر مستفسِراً حول طبيعة العمل الإبداعي وما صلة مفهوميْ " اللغة " و" الخطاب " بذلك كلِّه[46].

ويقال نفسُ الشيء عن تعريف *النص* الذي لا يمكن عزله عن نظامية اللغة. وهو ما يوصف عادة بلغوية النص، حيث يعتقد جلُّ النقاد انطلاقاً من نظرية رومان ياكوبسون في الوظائف اللغوية أنّ النص هو محور الأدب الذي هو بدوره فعالية لغوية انصرفت وانحرفت عن مواضعات العادة والتقليد وتلبّست بروح متمرِّدة رفعتها عن سياقها الاصطلاحي إلى سياق جديد يخصّها ويميِّزها؛ وخير وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي هي الانطلاق من مصدره اللغوي، وذلك كله في مقابل فاعلية أخرى هي فاعلية صادرة من القارئ تشعره بأنه يمتلك النص الذي يشارك في إنتاجه حين يأخذ في تفسيره[47]. لذا يتعايش أكثرُ مِن كيفيّة لتصنيف النصوص وافِدة كلّها مِن آفاقٍ نظريّة متنوِّعة: يجد المختار لفكرة *أجناس*

[44] البهاء حسين، حوار مع إدوارد الخراط، مجلة إبداع، ع.08/07، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، صيف وخريف 2008، القاهِرة، (ص.65 . 71)، ص.66.

[45] المرجع نفسه، ص.66.

[46] المرجع نفسه، ص.66.

[47] ينظر: فاضل ثامر، اللغة الثانية: في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، 1994، ص.83. أحال على: عبد الله الغذامي، التكفير والخطيئة: من البنوية إلى التشريحية.

المنارة للاستشارات

النصوص، الموروثة عن التّراث الأدبيّ والنّقد الأدبي، تتزامن مثلاً مع فكرة *أنواع النصوص* المنبثِقة من أحدث البحوث اللِّسانيّة ولاسيما البنويّة منها. وهو ما عمد إليه جان ميشال آدم[48]. لذلك فحينما نتحدّث عن مفهوم " النصّ " نكون حينئذٍ في صدد التموقع في نموذج التواصل. فيتحدّد بذلك معنى النصّ من إحداثيات موقعيْن: نعثر عليه بإعمال فكرة الغاية التي قد تنتمي إلى منتج النص (حيث ينتج وفقَها جزءٌ من المعنى النصّي، والتي تصطحب بدورها بعنصر المستقبِل أي المتلقّي (القارئ أو المستمع) وهو الموقع الثاني؛ وهذا ما يفرض إذن إدخال المتلقّي بكلّ أبعاده الاجتماعية. وفي تعريفه للنصّ الأدبيّ « يرى [الفتاح كيليطو] أنّ للنصّ مدلولاً ثقافيًّا، وأنّه لا بدّ له من مفسِّرٍ أو مؤوِّل يوضِّح جوانبَه المظلِمة .والتفسير بدوره قد يصبح نصًّا، ويحتاج إلى مفسِّرٍ جديد ... وهكذا. أمّا التعريف البنيويّ للنص فهو " غير موجود " بسبب كثرة التعريفات، وعدم إحاطتها وشموليّتها »[49]. ثمّ إنّ هذا ليس موضوعَنا وإلاّ واصلنا في تحديد مظاهر هذه المفارقة.

[48] ينظر: Lorenzo Devilla, « Analyse de La linguistique textuelle – Introduction à l'analyse textuelle des discours », Alsic, Vol. 9/2006, [En ligne], mis en ligne le 20 décembre 2006. URL://alsic.revues.org/index300.htlm. Consulté le 13 janvier 2010.

[49] محمّد عزّام، تحليل الخطاب الأدبيّ على ضوء المناهج النقديّة الحداثيّة: دراسة في نقد النقد، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، (د.ت)، ص.60. 61.

المنارة للاستشارات

أما جوليا كريستيفا فإنّها تعرِّف النصّ معتمِدةً التحليل الآتي: إذا كان النصّ يستمدّ وجودَه من اللّغة وذلك بفضل مطابقة علاقاتٍ لسانيّة وتمثّلها، فهو يتجاوزها إلى شيء آخر، وذلك بإعادة توزيع عناصر تلك اللّغة، فهو قالِبٌ جامعٌ يعتمِد آلية إنتاجيّة من شأنها أن تُحصِّل ملفوظاتٍ ترجع إلى نصوصٍ أخرى؛ بل النصّ يوفِّر أجواء لالتقاء النصوص وتشابكها، فالأحرى إذن أن يُتحدَّث عن ذلك الجهاز المنتِج بمراعاة الربط بين حديث تواصليّ لا يكفّ عن الإخبار وبصورة مباشِرة وبين نماذج متنوّعة من الملفوظات التي لها سبق الوجود مقارنةً بذلك النص، فلا يمكن التنازل عن هذا الشيء الذي تمتدّ إليه جذور تلك الملفوظات ويحتكم إليها النصّ في آنٍ واحدٍ، ممّا يساهم . وحسب هذه المعايير . في تحويل النصّ إلى كيانٍ يعتمد مقولات منطقيّة، والسببُ في ذلك هو تزامن النص مع خلفيّة لتلك المقولات المنطقيّة دورٌ في تشكّلها[50].

فالتركيب النحويّ والدلاليّ يتشظّى محمولاً بمجموعة " أصوات الآخرين " و" لهجاتهم "). إنّ ما تقصده جوليا كريستيفا لا يختلف كثيرًا عن الإستراتيجيّة التلميحيّة التي قال بها محلّلو الخطاب، فالهمّ المنهجي يقتضي منّا العروج إلى مفهوم هذه الإستراتيجيّة حيث يرى أنّ للّغة مواضعاتها للتعبير عن قصد المرسِل في كافة المستويات، ومنها المستوى الدلاليّ، إذ يستطيع المرسِل أن يعبِّر عنه وفقَ شكل اللّغة الدلاليّ مباشرة، بما يتطابق مع معنى الخطاب ظاهريًّا، وهذه هي الإستراتيجيّة

[50] يُنظَر: جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي ومراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء (المغرب) 1997، ص.19 . 20.

المنارة للاستشارات

المباشرة[51]. ومع هذا، إلاّ أنّه قد يعدل عنها إلى استراتيجيّة أخرى، فيلمّح بالقصد عبر مفهوم الخطاب المناسب للسياق، لينتج عنه دلالة يستلزمها الخطاب ويفهمها المرسل إليه. هذه الإمكانات تفضي بنا إلى نتيجة مهمّة وهي مركزيّة السياق في منح الخطاب دلالته للتعبير عن القصد[52]. فيغدو من المهمّ أن ندرك أنّ التّصريحَ والتلميح صنفان لا يتطابقان تمامًا مع أصناف الأشكال اللّغويّة الصرفة، بيد انّهما يتطابقان مع الأشكال اللّغويّة في السياق فقط.

وفي هذا الصدد يجب التذكير بأنّ المضامين لا تقلّ أهميّة في الخطاب بقدر ما تتيح طبقاتها ـ على الرّغم مِن كثافتها ـ مِن إمكانات تستشفّ مِن خلالها القوالب والأنماط الفكرية السائدة في معتقد صاحب ذلك الخطاب. من هنا فلا نستغرب أن نجد خلدون الشمعة يستعمل مصطلح (الخطاب) في مفهوم الفكر والإيديولوجيا والرؤيا والنظرة إلى الأشياء[53]. بيد أنّه ـ وفي هذا السياق ـ ننوّه بما أكّده ابن خلدون من أنه مهما تكن المضامين المفهومية التي يحتويها الخطاب، فإنه يتضمّن سلسلة كاملة من العناصر التي تشير إلى درجة حضور المتكلم والصورة

[51] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ط.1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص.23. نقلاً عن: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداولية، ترجمة سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986، ص.367.

[52] أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوظيفيّ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص.21 ـ 23. وكذلك: آفاق جديدة في نظريّة النحو الوظيفيّ، سلسلة بحوث ودراسا (05)، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة محمّد الخامس، الرباط، 1993، ص.35.

[53] خلدون الشمعة، خطاب شيطنة الآخر: برنارد لويس واكتشاف الإسلام لأوروبا، الجديد، ع.19، أوت 2016، ص.16.

المنارة للاستشارات

التي يكونها عن المخاطب[54]. وهو ما يؤكد أكثر علاقة الخطاب بالسياق، لذا يورد ابن خلدون عناصر لغوية لا يمكن معرفة دلالاتها ومرجعياتها إلا بالرجوع إلى حال الخطاب الذي قيلت فيها. من هنا فلا يمكن « أن نفترض أنّ النصّ الأدبي يتغيّا التواصل في مفهومه الدّارج، وإنما هو إنتاج رمزي قابل لأكثر من فهمٍ وتأويلٍ، ويستطيع أن يجعل بعض القراء يدركون المسكوت عنه، في الخطابات العامة المتوسلة باللغة المتخشبَة. ما يتطلّع إليه النصّ الأدبي، هو إيقاظ المعنى الغافي في شعور وذاكرة القارئ، وكشف الحجاب عن الدلالات والمعاني، التي تنبُت خارج الأسيجة والقضبان »[55].

من هنا يشترِك الخطاب مع النصّ في كونه يظلّ مرتبِطاً بالأفكار كما بالأشياء والعالم الخارجي أكثر من ارتباطه باللغة على الرغم من قيامه كما هذه الأخيرة على كينونة النظام المشكَّل من العلاقات والخلافات الداخلية؛ ذلك أنّه « يحيل دوماً إلى موضوع معيّن وإلى عالم يصفه ويتمثّله ويعبِّر عنه »[56]، ويحمل أفكار صاحبه ضمن قضية جوهرية وكلية مهيمنة؛ يضمن تجليّاته إطار عام يؤدي وظيفة المرجعية والخلفية التي تمنع تمايل الخطاب نحو اعتناق مذاهب واتجاهات يمكن أن

[54] ينظر: محمد عيد، المَلَكَة اللّسانيّة في نظر ابن خلدون، عالم الكتب، القاهِرة، 1979، ص.35. نقله عن: ابن خلدون، المقدمة، ص.1065.

[55] محمد برادة، النصّ الأدبي والتّواصل، دبي الثقافية، ع.79، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، دبي (الإمارات المتّحدة)، ديسمبر 2011، ص.49.

[56] يُنظَر: محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، 2002، ص.76.

المنارة للاستشارات

يذوب فيها بدون جدوى. وهذا ما حدا بمحمد أركون (1928 ـ 2010) إلى الدعوة إلى تجديد الفكر الذي قد يعترض عليه بدافع انغلاق النص المقدَّس[57].

والحال أنّ البحث عن المعنى يتأسس دائما على متغيرات نقطتين متعارضتين في الظاهر وهما الماضي والمستقبل؛ ما هو قبلي وما هو بعدي. ويمكن حلّ هذا التعارض بالقول إنّ التعارض يكمن في كون المتلقّي قد يلج إلى عالم النصّ وبالتالي معناه من حيث هو آتٍ في فترة لاحقة مقارنةً مع تواجد كاتب النصّ أي أنّ تصوّرات هذا الأخير سابقة على تأويلات ذلك المستمع ـ القارئ. وهو ما يجدر أن يؤخذ بعين الاعتبار على الرغم من اعتباره تعارضاً ظاهريّاً لأنّه أساس الفهم الأوّلي للنص، بيد أنّه أساسي لأنّه الموجِّه نحو هذا الفهم والمستكشِف البسيط إن لم نقل الساذج لما يريده ذلك النصّ.

ولكن بما أنّ هذا الموقع هو في طبيعته غاية سبق للكاتب أن رسمها، فقد يصبح القارئ جزءاً من هذه الغاية. فيكون بذلك في متناوله (القارئ) كلُّ ما مكَّن مِن إنتاج النص أي المعين الذي تغذّى منه النص فتشكّل في معنى ما بل معانٍ شتّى. وهو ما لا يمكن اختزاله في عنصر الشخص المنتج (المتكلِّم ـ الكاتب) أي في العناصر الشخصيّة والأبعاد الفرديّة التي تكفل تداخل النص والخطاب واللغة في شبكة يتم من خلالها تلقّي المعنى في كلّ تجلياته الدلالية والإحالية والإشاريّة والإيحائية التصريحية الضمنيّة في مختلف الوضعيات المجنَّدة لذات الغرض.

[57] ينظر: محمد أركون، حول الأنثربولوجيا الدينية: نحو إسلاميات تطبيقية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع.06 / 07، 1980، ص.32.

المنارة للاستشارات

ولا يخوِّل ذلك إلاّ نوعٌ من خطاب يتملّكه الفرد ويُحسِن أداءه ويسمح له بخوض المعركة على عدّة جبهات[58]. لأنّ أدوات إنتاج النصّ ومصادره تتعدّى الشّخص نحو المتلقّي عبر العناصر الخارجية كالسياق الاجتماعي والتّاريخ وما تفرضه الأشياء الواقعة في الأطر الخارجية وكذا تدخّل العناصر الداخليّة المتعلِّقة هذه المرّة بعالم ـ بل عوالم ـ المتلقي أو بالأحرى المتلقِّين. وهو ما يستدعي مراعاة جميع معِدَّات النص ومكيِّفاته من المؤسّسات والظروف التي هي ملك الكاتب والقارئ معاً. لهذا لم يُصبح أمر تعليم موضوع ما من خلال النصوص أمراً هيِّنا ولاسيما في اختيار النصوص لأنّ تكييف هذه الأخيرة للمستويات وللسياقات المختلفة أمرٌ لا يمكن الاستغناء عنه. وكذلك نعثر على المعنى في ذلك النوع من المعنى الذي ينبع من النصّ أو من أطره. فالقارئ يبحث في العدّة التي أنتجت النصّ وهو ما يحيله على اللغة التي يكون الكاتب قد اعتمدها. وتنطوي نظريّة إيزر [Wolfgang Iser] في تركيزها على ثغرات وفراغات وحذوفات النص، على بعض التماثلات لنظريّة ماشيري Macherey وإن كان الأخير ينظر إلى فجوات النص لا من خلال علاقتها بوعي القارئ أو الخبرة الجمالية وإنما بوصفها أعراضاً لتاريخ مقموع، وبينما تحاول أيديولوجية النص إلغاءها فإنّه يتعيّن على الناقِد إظهارها ويكشف ذلك عن اختلاف جوهري في النظر إلى وظيفة الأدب، ويهاجم تيري

58 يُنظَر: Michel Fabre, Pensée pédagogique et modèles philosophiques : le cas de la situation-problème, Revue française de pédagogie, n°120 (Penser la pédagogie), Ed. Ecole Normale Supérieure de Lyon, juillet-sept. 1997, (p.49-58), p.49.

المنارة للاستشارات

إيجليتون Eagleton إيزر بقوله: " تنهض نظريّة إيزر في التلقي على أيديولوجية إنسانيّة ليبراليا: وهي اعتقاد مفاده أنّه ينبغي لنا أن نتصف بالمرونة وسعة العقل أثناء القراءة، وأن نكون مؤهّلين لوضع اعتقاداتنا الخاصة في حيز المساءلة والتشكيك، وأن نسمح لهذه الاعتقادات بالتحول "[59]. هذا، بينما يرى " ريفاتير " في كتابه: " Essais de stylistique structurale . دراسات في الأسلوبيّة البنيويّة "، أنّ « القارئ يجلي الأسلوب بفعل الأثر الذي يتركه فيه. فالأسلوب يستأثر بانتباه القارئ واهتمامه عبر ما يُفضيه في سلسلة الكلام. والقارئ يستجيب، بدوره، للأسلوب فيضيف إليه من نفسه عن طريق رد الفعل الذي يحدثه فيه. [...] و" ريفاتير " يقول: " إن اللّغة تعبر، والأسلوب يجعل لهذا التعبير قيمة " »[60].

وليس هذا فحسب، ولكن نصادِف " الخطاب " عند محمد عابد الجابري (1935 ـ 2010) باعتباره مقول الكاتب ـ أو أقاويل بتعبير الفلاسفة العرب القدماء ـ يعني « بناء من الأفكار (إذا تعلّق الأمر بوجهة نظر يعبّر عنها تعبيراً استدلاليا، وإلا فهو أحاسيس ومشاعر، فن أو شعر) يحمل وجهة نظر، أو هو هذه الوجهة من النظر مصوغة في بناء استدلالي، أي بشكل مقدمات ونتائج.

[59] ينظر: كين م. نيوتن، نظريّة التلقّي ونقد الاستجابة ـ القارئ، مجلّة القاهِرة، ع.161 (عدد خاص: نِهاية الفلسفة)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهِرة، أبريل 1996، (ص.195 ـ 208)، ص.201.

[60] منذر عياشي، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، ط.1، مركز الإنماء الحضاري، حلب ـ سوريا، 2002، ص.151. نقله عن: M. Riffaterre, Essais de stylistique structurale, p.31.

المنارة للاستشارات

هنا كما هو الشأن في كل بناء (المنزل مثلا) لابدَّ من استعمال مواد (مفاهيم) ولابدَّ من إقامة علاقات معينة بين تلك المواد حتى يصبح بناء يشد بعضه بعضا (الاستدلال أو المحاكة العقلية »[61].

ونُلفي الجابري يشير أيضاً إلى أنّ الخطاب يطلَق في معناه الاصطلاحي الفلسفي المعاصر ـ ولاسيما " الخطاب العربي " الذي كان آخذاً في التشكّل حينئذ ـ على « الكلام المنظم عن أشياء بالسكوت عن أشياء وإبراز أشياء، وبعبارة أخرى: الاستدلال على أشياء بأشياء أخرى مع إغفال كثير من الأشياء »[62]. غير أن المسكوت عنه، هنا، لا يفيد بالضرورة ذلك النوع من " الحجب الموجودي (لأنطولوجي) " المرتبِط باللغة ذاتها وعلى نحو ما نجده عند فلاسفة التأويل والهرمينوطيقا. وهو ما يفضِّل أمبرتو إيكو أن يحدِّده على مستوى النصَّ الذي يعتبِره نسيجاً من فضاءات، و(فرجات) سوف تملأ، فيتركها بيضاء لسببٍ رئيسي وهو أن النص يمثل آلة كسولة ـ أو مقتصدة ـ تحيا من قيمة المعنى الزائدة التي يكون المتلقي قد أدخلها إلى النص[63]. والظاهر، كذلك، أن الجابري لا يوافق على أن يكون الخطاب « امتلاء وثراء لا حد لهما [كما يقول ميشال فوكو

[61] محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، ط.05، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994، ص.10.

[62] محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ج.1 (نقد العقل العربي)، ط.10، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص.61.

[63] ينظر: أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية: التّعاضد التّاويلي في النّصوص الحكائيّة، ترجمة أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، 1996، ص.63.

المنارة للاستشارات

(Michel Foucault) 1926 ـ 1984 في حفريات المعرفة][64]؛ إضافة إلى أن هذا الأخير، وفي الكتاب نفسه، يرفض التمييز القائم بين أنماط الخطاب الكبرى. والجابري أقصى، وبدافع من " التحليل الإبستيمولوجي "، وباسم " غابة اللاعقل "، قارة بأكملها، في التراث، وهي قارة الخطاب الأدبي... مع أن الحفريات لا تقبل بـ " التمييزات الخطابية ". ويمكن أن نرد ذلك إلى " الأنساق المغلقة " التي سعى مفكرنا، وعن قصد، إلى صياغتها، وبإحكام، حتى يقفل باب " التأويلات " في وجهها.

وهكذا يستمرّ الجدال حول مفهوم الخطاب حتى نلفي من لا يرى هناك فرقاً بينه وبين مفهوم " المقال "، وللتدقيق في هذه النقطة يجب تذكير كلّ مَن أبهمت عليه الحدود بين المصطلحين بضرورة التمييز بينهما، وذلك *باعتبار المقال شكلاً من الخطاب موضوع في قالب نصّ] محدَّد السمات*[65]. ولكن حينما نتأمّل في تعريف ناقد كسيد قطب لفنّ المقال نكاد لا نميز بينه وبين الخطاب ونقتنع بأن أحدهما امتداد للآخر، وهو يعتبر المقال « فكرة قبل كلّ شيء وموضوع، فكرة

[64] ينظر: يحي بن الوليد، مشروع الجابري في منظور فلسفة الاختلاف، نزوى، ع.64، مسقط (سلطنة عمان)، 2010، (ص.21 ـ 28)، ص.24. نقله عن: ميشال فوكو، حفريات المعرفَة، ترجمة سَالم يفوت، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء ـ بيروت، 2005، ص.110. وأحال على: محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية..، ص.22.

[65] مصطلح (سمات) ترجمة خاصّة للمصطلح الإنجليزي (Specifiers) كما هو متداوَل في الدراسات الأنجلوساكسونية، وهو يستوفي جانبا مهما من الدّلالات التي يفيدها مصطلح (Traits pertinents ou distinctifs) الوظيفي أي الملامح الوجيهة. ينظر: إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي: دراسة تطبيقية (جهاد المحبين لجرجي زيدان نموذجا)، دار الآفاق، الجزائر، 1999، ص.226.

المنارة للاستشارات

واعية، وموضوع معيّن يحتوي قضيّة يراد بحثها، قضية تجمع عناصرها وترتّب، بحيث تؤدّي إلى نتيجة معيّنة وغاية مرسومة من أوّل الأمر »[66]. من هنا ترجع مسألة المضمون كحدٍّ ليس مِن السّهولة بمكان التخلّص منه.

3.3.1 الخطاب مسار يستدعي التحليل

في حين يعتبِر تزفيتان تودوروف (*Ztvetan Todorov*) 1939 ـ 2017، الخطاب مساراً (*Processus*)، يقوم على دينماية حجاجيّة (*Argumentation*)، ويسعى إلى تَبْيِيء القضايا وشكْلَنَتها[67] (*Contextualisation / problématisation*) وذلك في الوقت الذي يضع النّقد ويكرِّسه مؤسَّسةً تتجلّى بمثابة القرين الضروري لمؤسَّسة الأدب؛ ويصرّح بأن النصّ لا يقول حقيقته كاملةً منفرِجاً عن الخطاب النّقدي[68]. وكذلك يطرح تودوروف " مفهوم الخطاب " المتعدد كمنظومة أجناس. علماً أنّ أجناس الخطاب تعتمد على المادّة اللغوية وعلى الأيديولوجيا السائدة في المجتمع[69]؛ وذلك تمسّكاً بتقليد طالما كرّسه بعض زملائه من الفرنسيين في تناولهم للخطاب على أنّه

[66] سيد قطب، النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، ط.8، دار الشروق، القاهرة، 2003، ص.106.

[67] ينظر: تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، ترجمة عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة (سلسلة الدراسات الأدبية)، دمشق، 2006، ص.05.

[68] تزيفيتان تودوروف، نقد النقد: رواية تعلّم، ترجمة سامي سويدان وليليان سويدان، ط.2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996، ص.16.

[69] ينظر: عز الدين المناصرة، .. في نظرية المثاقفة: الفرانكفونيا ـ التنجلز ـ التأمرك، الحرية، الحياة، ع.، 26 جانفي 1986، ص.107.

المنارة للاستشارات

ما يحوي على إيديولوجيا معيّة سواء توفّر فيه شرط التأثير والتفاعل أم لم يتوفّر. والحال أنّ باتريك شارودو (Patrick Charaudeau) يقول عن هذا النوع من الموقف والتقليد الذي مؤداه الاعتقاد بأنه يكفي توفر الإيديولوجيا لقيام الأثر والتأثير، أنه ساذج. فعلى شدّة الانتقاد هذا فإنه لا يحرم المغالطة ولا يمليها[70].

وتبقى السمة العالقة بمفهوم (الخطاب) هي أنّه تكيِيفي توجيهي حجاجي أي بإمكانه أن يحوّل الواقع إلى الصورة التي يريد صاحبه أن يصنعها من ذلك الواقع وحوله. ومن شأنه أن يغيِّر من النظرات السائدة، ولاسيما من خلال عملية التبئير (*Focalisation*) التي يسمِّيها كلود حجاج (Claude Hagège) *منظومة التبئير* (*Système de l'égophore*) المسلَّطة حول صاحب الخطاب بوصفها تدل على العناصر التي تستقطب التركيز على صاحب النظرة (الكاتب) أو غيره من العقول المفعَّلة ضمن الخطاب[71]. وهو الرأي الذي نستأنس به تدعيماً لفكرة المسار التّكييفي الذي نلفي الخطاب يدلّ جرّاءَه عند بعض النقاد ـ ولاسيما أولئك المعتدّين بالمناهج الحديثة وفي إطار البنوية ـ على ما يتيحه الأسلوب من الإمكانيات التعبيرية سواء أكان ذلك عن طريق التبني أم الحوار،

[70] ينظر: Patrick Charaudeau, Langage et discours : éléménts de sémiolinguistique (théorie et pratique), Ed. Hachette, Paris, 1980, p.23.

[71] ينظر: Claude Hagège, L'homme de paroles: contribution linguistique aux sciences humaines, Ed. Fayard (Coll. Le temps des sciences), 1985, p.246.

المنارة للاستشارات

وهو ما أخذت الأسلوبيات تتكفّل به[72]. كما نُلفيه ينطبق على مفهوم الحجاج[73]. وعليه نلاحظ في محاولات التأسيس لنظرية الخطاب اعتماد المزاوجة بين التراث العربي والتراث الغربي ولاسيما في ظل مبادرات المحدثين. فهذا عبد الملك مرتاض نلفيه يعتمد في إحدى محاولاته آراء الجاحظ في مقابل آراء جان كوهن (Jean Cohen) محاولاً التقريب بينهما في تحديد مفهوم الشعر. وهو قيامه على مجموعة عناصر أساسية كالوزن وتخيُّر الألفاظ وسهولة المخرج، وباعتبار الشعر نوعاً من الصناعة وضرباً من النسيج وجنساً من التصوير[74]. فالأفكار موجودة في العالَم المحسوس وكذلك في العالم المجرَّد[75]، فقد يُسهِم الخطاب شفاهياً كان أم كتابياً في تجسيدها كما يلعب دورًا في تجريدها مرّةً أخرى. فيأتي الخطاب يفكّك المفاهيم؛ وذلك بوصفه نظاماً من القول/الكلام/الحوار/التلفّظ، الذي يقوم على قواعد وينطوي على قدرة كفيلة بإنتاج المعرفة[76] التي كثيراً ما تستمدّ

[72] محمد العمري، تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية في الشعر (الكثافة والفضاء التفاعل)، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، 1990، ص.49.

[73] أمينة دهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2010،

[74] عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري: دراسة تشريحية لقصيدة " أشجان يمنية "، دار الحداثة، بروت، 1986، ص.05.

[75] يُنظَر: ديان مكدونيل، مقدِّمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديميّة، القاهرة، 2001، ص.133.

[76] نُطلِق كلمة (المعرفة) في هذا السياق، لا من حيث معيار الصحّة المتطلَّبة لعملية المراقبة، ولكن بمفهوم " المعطى/البيان/الخبر/الحقيقة (في عين قائلها) ". وهو ما يتطابق مع مدلول المعرفة التي من شأنها أن تمكِّن الفرد من تغيير نظرته إلى الإنسان والمجتمع والحياة والوجود والعالم. فجانب التأثير والتفاعل هو ما يؤخَذ بالاعتبار

المنارة للاستشارات

مصداقيّتها وشرعيّتها ومشروعيّتها مِن جهة القواعد اللغويّة؛ وكذا من جهة قواعدها الخاصّة بها، أي تلك التي تحكمها والتي ليس معيارها ما هو واقع بالفعل وحاصل؛ بل ما يروم صاحبه إلى قوله هو المحكّ. لعلّ ذلك ما جعل الأدب الذي يتبارى النقاد إلى ترقيته يكون لفترة هدفاً لبلوغه ويظلّ ميدان المنافسة الأهم ـ كما يصرِّح بذلك رولان بارت (Roland Barthes) في أكثر من مناسبة، وذلك ناهيك عن القوّة الثّانية للأدب المتمثِّلة في قدرته التّمثيليّة. فمنذ العصور القديمة حتّى مساعي الطّليعة، والأدب منشغلٌ بتمثيل شيء ما»[77]. وهنا يتساءل رولان بارت بإلحاح: فما هو يا ترى ؟ فيجيب توًا: « إنّه الواقع، إنّ الواقع لا يقبل التّمثيل »[78]. وهو ما ينتهي به إلى تشريع حاجة الناس إلى تاريخ للأدب نظراً لكونهم لا يفتأون يمثّلون الواقع عن طريق الكلمات[79]. بل يشكل الأدب من ناحية كونه خطاباً مجالاً فسيحاً للاستكشاف. وهو ما حدا بسغموند فرويد (Sigmund Freud) إلى الإقرار بفضل الأدباء قائلاً: « لقد اكتشف الشعراء والفلاسفة قبلي اللاّشعور، أمّا ما اكتشفته أنا فهو المنهج العلميّ الذي

في هذا الإطلاق وبهذا التحديد النّسبي ـ الذي يمكن مناقشته بالطّبع. يُنظَر حول إيحاءات وإسقاطات هذا المصطلح كتاب (Duncan Pritchard): دينكان بريتشارد، ما المعرفة ؟، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة 404)، الكويت، سبتمبر 2013، ولاسيما الفصل الثالث، ص.45 ـ 62.

[77] رولان بارط، درس السّيميولوجيا، ترجمة عبد السّلام بنعبد العالي، ط.3، سلسلة المعرفة الأدبيّة، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب، 1993، ص.16- 17.

[78] المرجع نفسه، ص.16- 17.

[79] المرجع نفسه، ص.16- 17.

المنارة للاستشارات

يمكن بواسطته دراسة اللاّشعور »[80]. من هنا عُدَّ تحليلُ الخطاب أمراً مرتبطاً بكون هذا الأخير مساراً أكثر من اعتباره مجرَّد نتيجة أو بالأحرى نتاج أو معرفة[81]؛ ذلك أنّ المعرفة حسب خطاب العلم ـ أو حسب خطاب معيّن للعلم ـ عبارة عن هدف؛ أمّا حسب الكتابة الأدبيّة فهي ـ أولاً وقبل كلّ شيء ـ تعبير[82]. وكذلك « باعتبار الخطاب [بهذا التصنيف] لا يحدّد ميدانا تتسنّى دراسته بواسطة اختصاص متماسك، فتحليله بالأحرى طريقة لدراسة اللّغة؛ ومع ذلك يتحدّث بعض اللّسانيين عن اختصاص مستقل »[83]. وكذلك أسهم هذا الملمَح ـ أي كون الخطاب مساراً ـ في استحسان مصطلح (الخطاب الشعري) وتقديمه على مصطلح (الشعر) الذي ينطلَق في تعريفه باعتماد كلمة (الفنّ) التجنيسية، فأصبح الآن يعرف الشعر بأنّه « خطاب متميِّز يضمر أكثر مما يصرح، يوحي، يأبى أن يفصح عن ظاهره أو حقيقته للوهلة الأولى، بل تراه يمعن في التخفّي والتكتّم والخداع وراء شعرية الكلمات »[84]. ومع ما يحيل عليه هذا الحدّ من القيم اللفظية التي قد لا

---

[80] ليونيل ترلنج، فرويد والأدب، ضمن النّقد: أسس النقد الأدبي الحديث، تبويب مارك شورد وجوزفين مايلز وجوردن ماكنزي، ترجمة هيفاء هاشم ومراجعة نجاح العطار، ج.1، ط.2، سلسلة في نظريّة الأدب (2)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2005، ص.284.

[81] ينظر: المرجع نفسه، ص.16.

[82] ينظر: المرجع نفسه، ص.16.

[83] عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت) ـ دار الاختلاف (الجزائر)، 2010، ص.51.

[84] ينظر: رضا بن حميد، الخطاب الشعري الحديث: من اللغوي إلى التشكّل البصري، فصول، م.2 / ع.2 (الشعر العربي المعاصِر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، أبريل 1996، (ص.95 ـ 107)، ص.96.

المنارة للاستشارات

نعثر على مقابلاتها في واقع الأمر، فإنه يأتلف مع كون الخطاب في متناول المشاهدة لأنه محكوم بمعايير يمكن صياغتها قانونيّاً[85]، بينما يبدو أنّ التعويل على لفظة (الفن) قد لا يزيد الأمر إلاّ تعتيماً على الغموض الذي يكتنف تعريف الشعر. كما يفترض الخطاب حصول تنظيم يتجاوز الجملة، وذلك بوصفه موجّهاً في الغالب وفق مرامي صاحبه، وكذا باعتباره شكلاً من أشكال الفعل الذي يقتضي التّفاعُل وليس مجرّد ردَّة فعل؛ علماً أنّه مظروف دوماً بمقامه حالما يقع بين خطابات أخرى، ومتكفَّل به من قبل الجهة التي تصدره[86].

2. مفهوم الخطاب النقدي

1.2 أشكلة الخطاب النَّقدي

بناءً على ما جاء أعلاه من أنّ كلّ بحث في مفهوم " الخطاب " ـ من الضّرورة ـ بحثٌ إشكاليٌّ داخل مجالٍ بعينه[87]، وبمقتضى التكريس السابق لفكرة " الخطاب " التي تستمدّ مصداقيّتها من المقولة الشهيرة التي نوَّه بها فرديناند دي سوسير، والتي مؤدّاها أنّ *الزاوية* هي *التي تخلق الموضوع*[88]، وكما يواصِل معظم

[85] ينظر: باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، المركز الوطني للترجمة ـ منشورات دار سيناترا، تونس، 2008، ص.184.

[86] ينظر: المرجع نفسه، ص.181 ـ 184.

[87] ينظر أعلاه: 1.1 الافتتان بهالة الخطاب.

[88] وذلك في صدد تحديده لموضوع اللسانيات العامة الذي يسبقه ـ عنده ـ تحديد زاوية الدراسة؛ وهو يطرحها بهذا الشكل: « بعيداً عن كون الموضوع سابقا على المنظور نقول إن زاوية الدراسة هي التي تخلق الموضوع ». يُنظر: F. de Saussure, Cours de linguistique générale, Ed.

المنارة للاستشارات

الابستمولوجيين بالقول إنّ منهجية الدّراسة تتحدّد باعتماد زاوية نظر معيّنة؛ يجدر اعتبار ما عرفه النقد الأدبي الحديث والمعاصر من أهمّ الإشكاليات المطروحة عليه والتي أعقبت تحولات كبرى بفضل المثاقفة ذاتها، أفرزت بدورها *خطابا نقديا* محدَّد الزوايا ومن شأنه أن يجعل من النقد نفسه موضوعا للدراسة والتحليل.

وكذلك « صار مقبولاً منذ مدة، عند [أولئك الابستمولوجيين] والمهتمين بمناهج العلوم، القول بأن طبيعة الموضوع هي التي تحدد المنهج »[89]. وبالتالي يفرض قِدم هذا النشاط في الممارسة النقدية العربية على الدارِس اختيار المنظور الذي لابدَّ أن يتموقع فيه ويوجِّه منه مشاهدتَه؛ مع العلم أن التنظيرات الحديثة هي التي سعت لإرساء قواعده ككيان معرفي يبسط حضوره في كيانات العلوم الإنسانية[90].

---

préparée par Tullio De Mauro, Postface et trad. du l'Italien (Notes de T. D. Mauro) par Louis-Jean Calvet, Payot, Paris, 1985, p.23. مع سلامة تقليب القضية على وجهها المعكوس كما يذكِّر بها الفيلسوف غادامير منتقداً أرسطو، قائلاً: « المنهج الذي نقرّ به قبل أن ندرك الشيء هو تحديد فاسد. فالموضوع نفسه هو الذي يحدد المنهج الذي يدركه »؛ ينظر: هانس غيورغ غادامير، المشكلات الابستمولوجية للعلوم الإنسانية، ضمن فلسفة التأويل: الأصول والمبادئ والأهداف، ترجمة شوقي الزين، ط.2، منشورات الاختلاف (الجزائر) ـ الدار العربية للعلوم والمركز الثقافي العربي (بيروت)، 2006، (ص.147 ـ 158)، ص.153.

[89] محمد عابد الجابري، التراث ومشكل المنهج، ضِمنَ المِنهجيّة في الأدب والعلوم الإنسانيّة ..، (ص.71 ـ 87)، ص.71.

[90] بوقرط الطيب، بيبليوغرافيا الدراسات النقدية في الجزائر: مقاربة تحليلية للدراسات السردية (للفترة الممتدة من 1982 إلى غاية 2013)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 2017، ص.178.

المنارة للاستشارات

ولقيد مفهوم " الخطاب النّقدي "؛ نستعين بشبكة من علاقات يرتبط هذا الأخير في ضوئها بكلٍّ من *النقد* كممارسة وما يدعى (نقد النقد) بوصفه ـ من جهة ـ متضمَّناً في مجال الخطاب النقدي، ومن جهة ثانية ـ كوجه آخر له. وتشمل هذه الشبكة أيضاً العلاقات التي يتحدد من خلالها مفهوم " الخطاب النّقدي " على غرار مؤوِّليه وغاياته.

وقبل ذلك نستعرِض بإيجاز ما تتبَّعناه من سياقات ورود مصطلح (الخطاب النقدي) بعدما اطّلعنا على بعضها على غرار ما يجب السبق بالإشارة إليه من مبحثٍ ورد في كتاب (المرايا المتجاورة) لجابر عصفور تحت عنوان (تقلّب الخطاب النَّقدي)[91]؛ وفي السياق ذاته ينبغي التنويه بالبحث الأكاديمي القيِّم الذي أنجزه الباحث والناقد المغربي يحيى بن الوليد، نشره لاحِقاً في كتابٍ بعنوان (في الخطاب النَّقدي عندَ جابر عصفور)[92]. وكذلك تفرّعت ـ من بعد ذلك ـ كتبٌ صارت تحمل عناوين يتوارد فيها مصطلح " الخطاب النقدي " ويتواتر. ولكن لاحظنا في كثيرها عدم التمييز بين مصطلح (الخطاب النقدي) ومصطلح (النقد). بيد أنه علاوة على المقتبسات الآتية سيطلعنا فحوى بعض ما نقتبسه ونثبته في خلال بحثنا هذا، عن إرهاصات ما نقصده من مفهوم " الخطاب النَّقدي ":

[91] ينظر: جابر عصفور، المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة دراسات أدبية)، القاهرة، 1983، ص.431 ـ 444.

[92] ينظر: يحيى ابن الوليد، في الخطاب النَّقدي عندَ جابر عصفور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1999.

المنارة للاستشارات

قول الباحث محمد بلوحي: « يسعى هذا البحث لتفحص المقولات الكبرى للمناهج النقدية الحديثة في أصولها الغربية، وكيف استطاع الخطاب النقدي العربي الحديث أن يستثمرها في مقاربة التراث العربي وبخاصة منه الشعر الجاهلي، بفعل التطور الذي لحقه على مستوى الرؤية المعرفية والأدوات الإجرائية ، ومن ثم يركز هذا البحث على تتبع المتصورات الجوهرية لقراءة القراءة، لأنه يشتغل على المتن النقدي وليس على النص الإبداعي »[93].

القراءة التاريخية في الخطاب النقدي الأدبي، إحدى القراءات القديمة التي واكبت الظواهر الأدبية، وحاولت مدارستها، وتفسيرها وتدوين أخبارها ومعطياتها وأسسها، وهي تسعى إلى تفسير نشأة الأثر الأدبي، وربطه بزمانه ومكانه وشخصياته، حرصاً منها على البعد التاريخي للظاهرة الأدبية، ولذلك نجدها في كثير من طرائقها تشبه الدراسات التي تهتم بتاريخ الأدب، إن لم نقل إن تاريخ الأدب مرحلة أولى من مراحل تجسيد القراءة التاريخية في الخطاب النقدي الحديث، عدتها المادة التي تنحصر في الرواية والأخبار، ووسيلتها التاريخ الذي يعبر في جوهره عن الذاكرة الإنسانية بمختلف نشاطاتها المادية والفكرية، ويدرس الإنسان بوصفه كائناً له ماضٍ، وهذا ما يجعلنا ندرك أن التاريخ يطلعنا على أفكار الإنسان

93 محمد بلوحي، آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي: بحث في تجليات القراءات السياقية (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص.09. التسطير من وضعنا.

المنارة للاستشارات

الذي ينتسب لمجتمع ما، أو حضارة ما، وأفعاله وهذا ما عبر عنه "ابن خلدون" "بحقيقة التاريخ" »[94].

و

كذلك يرد المصطلح متصدِّراً عناوين، ومتألِّقاً في واجهات كتب عديدة تُشعِر بتناول الموضوع ـ كما أشرنا سابقاً ـ على غرار هذا العنوان (مقاربة الخطاب النقدي المغربي: التأسيس)[95].

2.2 بين النقد والخطاب النقدي

نستبصِر بإجراء هذا التقابل استجابةً لحقيقة الصعوبات القائمة حينما يسعى الباحث إلى تحديد ماهية النقد[96]: كأنّ الاحتكام إلى مقولة " الخطاب النقدي " يحلّ نسبيّاً هذه المعضلة. ومع ذلك يمكن المخاطرة بتقديم تعريف تقريبي: النّقد في الأصل جهد فكري وثقافي وعقلي وتأملي يبدأ بالتذوق وينتهي بالتحليل والتعليل. والممارسة النقدية هي ممارسة ثقافية بل ممارسة لأرقى أشكال الثقافة. فإذا كان الشاعر حسب ت. س. إليوت " خلاصة حضارة "، فإن الناقد خلاصة الخلاصة لهذه الحضارة. لقد بنيت كل الاتجاهات النقديه على خلفيات معرفية:

[94] المرجع نفسه، ص.15. التسطير من وضعنا.

[95] ينظر: محمد أقضاض، مقاربة الخطاب النقدي المغربي: التأسيس، شركة النشر والتوزيع المدارس (سلسلة المكتبة الأدبية)، الدار البيضاء، 2007.

[96] كثيرون هم الذين أثاروا هذه الصعوبات بل شكّكوا في أن تكون للنقد ماهية. ينظر مثلا: عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة، الجزائر، 2002، ص.75.

المنارة للاستشارات

فكرية ، وفلسفية ، وجمالية ، وكلها تشكل جزءاً من الثقافة . فالتسمية أصلاً "النقد الثقافي " مضللة ومدّعية ، ويقوم الجزء الثاني منها بمصادرة الأول. فالنقد والنقاد وكذلك المناهج النقديه تمارس فعلاً ثقافياً، لأن النقد أصلاً هو فعل ثقافي، فما الحاجة إذن إلى تقييده مرة أخرى بوصف ثقافي ؟ وهل هذه صرعة من صرعات الجري أو تخيل الجري إلى ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية ؟ لقد مارس النقاد عبر مسيرتهم التاريخية فعلاً ثقافياً، هكذا فعل أرسطو، ولونجينوس، وهوراس، وريتشاردز، وعبدالقاهر الجرجاني، وحازم القرطاجنّي وغيرهم. وهذا الفعل الثقافي ربما كان محدوداً بثقافة لغوية وعروضية، أو ممتداً إلى ثقافات منطقية وفلسفية وجمالية وهكذا دواليك، حسب ما جادت به معارف عصر كل واحد منهم . فالناقد دائماً يسعى إلى اكتساب المعارف الجديده وتطوير أدواته وهذا ما حدث مع كبار النقاد من أمثال رولان بارت (Roland Barthes).

استخدمنا حتى الآن مفهوم الخطاب للإشارة إلى مجموع المواقف والتفاعلات التي تعتبر لبّ المفهوم. وبعدما تصوّرنا مفهوماً للخطاب النقدي وأرْسَيْنا قواعدَه، وهو لا يزال يحمل دلائل الغموض ما لم نتقن تفصيله بفصله عن النقد كممارسة تخصّ غير ذاته؛ يستظلّ بحثنا هذا كلّه ـ كما أشرنا في المقدمة ـ بمصادرة مؤدّاها أنه ثمة فارق بين النقد والخطاب النقدي. من هنا اخترنا الولوج من هذه الزاوية إلى الإشكالية الأولى التي يهمّ إثارتها في هذا السياق لكونها ستُسعفنا على معرفة الأسباب التي تجعل بعض النقاد يخوضون في موضوع المثاقفة في إطار ما ندعوه (الخطاب النقدي). ولإثبات هذه المصادرة اشترطنا ضرورة ضبط الحدود بين

المنارة للاستشارات

المجالين. وهذا لا يعني حرمانهما من مدّ جسور بينهما. ولنيل هذا المبتغى المزدوج عمدنا بعد جهودٍ حثيثة وطويلة إلى استقراء بعض النصوص وقمنا بمسح نسبي لبعض العناوين التي يطلّ من خلالها المفهوم (المشترك) الذي نحن في صدد تناوله خلال هذه المناقشة؛ سعياً أيضاً إلى ضبط بعض الحقائق في مواجهة عيوب بعض الأقاويل.

لقد وردت هذه المقابلة عند الدّارِس مصطفى خضر في كتابٍ له، ضمن فصلٍ أسماه (النَّقد والخطاب النقديّ: في الفكر العربي المعاصر)؛ حيث شرع في وضع خطوط عريضة لتعريفه كالآتي: « الفرضيّة التي يحاولها الخطاب العربيّ المعاصر تتوقّع منه أن يكون خطاباً نقدياً، أي خطاباً حديثاً؛ فهو خطاب يتدرّب على النقد، إن لم يكن قد تحوّل في مرحلته الأخيرة، إلى خطاب نقديّ يؤسس في المختلف، وللمختلف وللمغاير، كما يتأمّل أصوله، أعني: هويّته ! »[97]؛ انطلاقاً من الكلمة الأخيرة يأخذ في وضعه وجهاً لوجه أمام تحدي المثاقفة حيث يعتبره خطاباً هادفاً « يوجهه وضع أمّة أمام مستقبلها، وشروط مجتمع، قياساً إلى تاريخ الغرب والأمّة والمجتمع في الغرب الذي هو تاريخ حداثة العالم وتكوين عقله الحديث، وقياساً إلى تاريخ "ذاتي" هو تاريخ "فتح" و"علم" لم يبق منهما إلاّ "ذاكرة" معطّلة »[98]. غير أن ما يقصَد هنا بالخطاب النقدي مخالف لما نذهب

[97] يُنظر: مصطفى خضر، النقد والخطاب: محاولة قراءةٍ في (مراجعةٍ نقديّة عربيّةٍ معاصرة) ـ دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2001، (ص.11 ـ 51)، ص.11.

[98] المرجع نفسه، ص.11.

المنارة للاستشارات

إليه من مفهوم في نصّنا هذا. إذ يتوسّمه في اقترانه بالحداثة والمعاصرة لهذا يرد دائما في مركبين (الخطاب العربي المعاصر) كما في هذا المقتبس: « الخطاب العربي المعاصر يعبّر عن مشروع ثقافة عربيةٍ معاصرةٍ فكراً ونقداً وفلسفة وإبداعاً. وقد تحرّك، كمثل الخطاب النهضويّ من قبل، ويتحرّك الآن في داخل أفضيةٍ متعدّدة ومختلفة، تهدف إلى استعادة التراث وإحيائه أو بعثه واستلهامه وتمثّله أو تبنيّه على نحو نقدي. وتحرّك، كمثل الخطاب النهضوي مستعيناً بخطاب تنوير، وبخطاب حداثة، غربيّين، حاول تمثّلهما وتعريبهما أو تقليدهما، وربما تبيئتهما في بعض تجاربه »[99]. هذا في الوقت الذي تحدده فيه الباحثة بوصفه الخطاب الذي ينتج المفاهيم ويحتوي الإجراءات المنهجية التي يستعين بها الناقد[100].

إنّنا لا نهتمّ في هذا السياق بسرد سلسلة من التعاريف التي أسندت إلى مصطلح (النّقد)، لأنّ ذلك ليس هدفنا. لذا ستكون وجهتنا انتقائية بحسب ما تتطلّبه ثنائية (النقد والخطاب النقدي) فحسب. إذن نكتفي بحصر النّقد في كونه ـ كما أسلفنا ـ ممارسة تنجم عنه عدّة مطالب (Instances) تتفاوت بحسب الثقافات والمحلِّلين (المفكِّرين) الذين يتعاطون لتلك الممارسة. ونذكر منها ما هو من طبيعة النظري وما يندرج في التطبيقي وما يتعلّق بالمنهج ولا ننسى كذلك شأن ما يدعى (اللغة الواصفة) المقابل العربي للمصطلح الفرنسي المشهور

[99] المرجع نفسه، ص.13.

[100] ينظر: لطيفة إبراهيم برهم، الخطاب النقدي عند لويس عوض: المفاهيم والاجراءات، البيان الكويتية، ع.468، الكويت، يوليو 2009، (ص.32 ـ 45).

المنارة للاستشارات

(Métalangage). فبعدما يكون الخطاب النَّقدي بمثابة أداة وواسطة، قد يصبح مصدراً معرفيّاً[101] ومعيناً مرجعيّاً وهدفاً للدراسة؛ لأن إبداء صاحبه لفهمه تجاه شيء ما ـ وهو ينطلق من زاويته الخاصّة ـ ينطوي على إمكانات تطوير العلم مهما يقدَح في ذاتيته ونسبيته؛ إذ على الأقل يكون قد شقّ الطريق بزاويته الخاصة. ولكن لا ننسى أن منطق تعدد المنظورات قد تسبب في كثير من المشكلات الابستمولوجية وهذا الواقِع فرض على اللّسانيين تصرُّفاً يقوم على لجوء بعضهم إلى وصف *الظّاهِرة اللّغويّة* إذا أحجموا ـ أو تردّدوا ـ عن الحديث عن *اللّغة* مباشرة ومن باب التعريف بها نهائياً، وذلك نظراً لصعوبات تحديدها. وكذلك يأبى بعضُ الأسلوبيين والنقّاد إلاّ أن يتناولوا *الظّاهِرة الأسلوبيّة* تحت تأثير صعوبات تحديد *الأسلوب*[102]، إذ ستبقى لهم بذلك إمكانية وصف الظّاهِرة الأسلوبيّة

[101] يُنظَر الهامش السابق.

[102] فهذا عبد السلام المسدي ما زال يحاول أن يحدِّد *الأسلوب* تحديداً مانعاً وشاملاً، إلى أن يستخلص ـ ناسخاً السابق من تعريفاته ـ أن " الأسلوبية تتحدّد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية ". ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، ط.2، الدار العربية لكتاب، تونس، 1982، ص.36. وكذلك أفاض صالح فضل في الموضوع محاولاً إعادة ترتيب مادة العلم التي استمد معظمها من شتات البحوث السابقة عليه وعلى معاصريه أمثال عبد السلام المسدي نفسه، واضعاً إياها موضع الانتقاد ومتخذا منها مواقف تدل على استعصاء ضبط الوحدة التي سيدرسها " علم الأسلوب " ـ كما فضل معاينته، من غير الإحاطة بالخلفيات وسلوك متاهات الدروب الوعرة. ينظر: صالح فضل، علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، الهيئة المصرية العامة (دراسات أدبية)، ط.2، القاهرة، 1985، ص71 ـ 98. وينطبق الأمر عنده على تحديد *علم الأسلوب*. فينبه إلى أن الأمر يؤول كله إلى ضرورة تحديد الزاوية ـ أولا، قائلا: « إذا كان الأسلوب ظاهرة تتمثل في النصوص المنطوقة أو المكتوبة، أو هو الطبقة العليا لهذه الظاهرة فإنه خلال عملية التلقي بشكل لا تستطيع مناهج علم اللغة التقليدية من نحوية ودلالية أن تلم به أو تحلل مقاصده وتأثيراته. كما أن الوصول لتعريف دقيق لمقولة الأسلوب لا يتم إلا

المنارة للاستشارات

وصفاً علمياً. وهذا إن دلّ على شيءٍ إنّما يدلّ على تجلّي تلك الظاهِرة في مختلف الأشكال، أي ما يجوز تناوله من مختلف المنظورات، حتى ثبت تعريف الأسلوبيّة على أنها *لسانيات الآثار التي يُحدِثُها أيُّ ملفوظ*[103]. بل يفرض منطق المنظورات هذا تعدّد تعريفات الأسلوبيّة على قدر تعدّد الأخصائيين في هذا المجال فيُسنَد التعريف الأخير إلى ريفاتير (Michel Riffaterre) حيث نجد اللِّسانيات تستغرق الأسلوبيّة[104]. وهذا يرجع طبعاً إلى تعدّد الرؤى واختلاف الفروع الاختصاصيّة التي طرقت موضوع الأسلوب. ومن بين المحدِّدات لتلك الظاهِرة

بتحديد نظريته ومعرفة طبيعة العلم الذي يكرس له باعتباره فرعا لعلم آخر أو قائما بنفسه. ففي نظرية الأسلوب يتحدد مجال الظاهرة المدروسة ومكانها العلمي الدقيق. وعلى هذا فإنه إذا تصورنا علم الأسلوب جزءاً من علم اللغة كان علينا أن نحلل نظريته إلى عناصرها المختلفة فنجعل أسلوب النصوص الأدبية تطبيقا جزئيا لمقولة أسلوبية عامة وحينئذ تعتمد النظرية الأسلوبية على علاقة النظام اللغوي العام ـ بمفهوم " سوسيور " بأسلوب نص معين كمظهر للكلام ويتعين عليها أن توضح بعض التصورات الهامة في الأدب مثل أسلوب مؤلف معين أو جنس أدبي بأكمله وما يعتريه من تطور أو تغيير على ممر العصور ». المرجع نفسه، ص.99. وقد صارت هذه المصادرة في حوزة كل ناشئ ومنشئ في الأسلوبية، ذلك أنه يستقيم سبك هذه الوحدة ضمن غيرها من الوحدات التي تفتّقت في خلفيات تفسّخ وحدة الدرس اللساني منذ نشوء ثنائيات دي سوسير. ينظر مثال التمسك بهذه المرجعية المتكررة: موسى سائح ربابعة، الأسلوبية: مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، الكويت، 2003، ص.09. نقلاً عن: يوسف مقران، مِن سمات الخطاب اللساني العربي الراهن: *مقاربة ابستمولوجية سوسيوثقافية (في ضوء لسانيات المتون)*، عالم الفكر، ع.179، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو ـ سبتمبر 2019، ص.35.

[103] ينظر: منذر عياشي، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 2002، ص.151. نقله عن: M. Riffaterre, Essais de stylistique structurale, p.31.

[104] ينظر: Alain Hardy, Théorie et méthode stylistiques de M. Riffaterre, Langue française, v. 03 n° 01 (La stylistique), Ed. Larousse, Paris, 1969, (p.90-97), p.93.

المنارة للاستشارات

المراد دراستها نجد الانزياح الذي يهمّ الدّارِسَ أن يتعرَّف على أبعاده، وكذلك مفهوم الاختيار المتيح لفرص التعبير والسياق الذي تُحصَّل وتُحيَّن فيه الانحرافات الأسلوبيّة، والنسق أي شبكة العلاقات السياقيّة المتبادلة بين الوحدات اللّغويّة المكرِّسة لأسلوب المبدِع[105].

وقد أعقب هذا المسار منعطفاً في تاريخ النقد الأدبي الذي أخذ يشهد مرحلة الانتقال من النقد الكلاسيكي ـ كل أشكال النقد الأخرى ـ قبل ولادة علم الخطاب ـ أو تحليل الخطاب ـ الذي كان يعتمد معايير وقواعد معينة لتحديد جنس أدبي عن غيره إلى مرحلة يتعامل فيها علم الخطاب مع النص الأدبي على أساس الكتابة النوعية التي تتخطى قواعد الأجناس الأدبية بما فيها من صفة أدبية إلى مرحلة العفوية المعدة إعدادا لسانيا واجتماعيا تواصليا حديثا يشكل فيها الجنس الأدبي نفسه بنفسه[106]. كما يتميّز الخطاب النقدي نسبةً إلى اللغة الواصفة التي تحدوه بوصفها خطاباً على خطاب. علماً أن طبيعة هذا الأخير هي لغة أدبية تختلف عن اللغة القياسية لأنها تنزاح بطبيعتها عن معيارية اللغة. كما أن هدف اللغة الأدبية هو إثارة انفعال لا تقرير وقائع، فهي لغة استشرافية بطبيعتها لأنها لا تعرف اختزال المعنى. إنها توسّع وتضيّق في نفس الوقت التفاوت بين الرمز

[105] ينظَر: يوسف حامد جابر، النّص الأدبيّ في اللّسانيّات البنويّة، علامات في النّقد، م.7، ج.29، النّادي الثّقافي، جدّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، سبتمبر 1998، (ص.219-240).

[106] ينظر: مازن الوعر، علم تحليل الخطاب وموقع الجنس الأدبي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع 14، إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي، دبي، 1996، (ص.14 ـ 19)، ص.15.

المنارة للاستشارات

والفكرة، في نفس الوقت التفاوت بين الرمز والفكرة، بين العلامة والمكتوب، والمكتوب والمعنى المحدد[107]. وقد قام هناك سجال حول طبيعة هذه اللغة (الواصفة) مقارنة مع اللغة الإبداعية، وعادت في ضوئه مسألة الشكل والمعنى إلى الواجهة. ويستمر هذا السجال مخلِّفاً آراء متّفقة حيناً ومتضاربة أحياناً. وهناك من اهتم بعقد علاقة جدلية بين الإبداع والنقد وقال بأنّ « إشكالية المواجهة بين الخطاب الشعري والخطاب النقدي موغلة في القدم، بل هي ملازمة لمسيرة الإبداع عموما، وتزداد حدّة هذه الإشكالية مع مراحل التحول الحاسمة »[108]. ويعتقد ميخائيل نعيمة أن الشعر ليس صنعة ولا تزيينا ولا زركشة، إنما هو معنى الوجود والحياة وعواطف الإنسان. وقد يكون ميخائيل نعيمة اقتبس هذا التفكير من الآداب الأوروبية والمنزع الرومانسي، لذا طالب أن ترفع كفّة المعنى على كفّة اللفظ أو كفّة الروح على كفّة الجسم[109].

هذا ما يتميّز به الخطاب النَّقدي عن النَّقد الذي نعرف أنّه معرَّضٌ دائما لكي يُصبِح موضوعاً للدراسة ولكن في حدود ضيِّقة وفي مقولات متكرِّرة. وإذا صحّ إدراج النَّقد في علاقة ترادفيّة مع الخطاب النَّقدي فبما يمكن الحكم على الأوّل أي

---

107 ينظر: عبد الله إبراهيم، التفكيك: الأصول والمقولات، أفريقيا الشرق للنشر، الدار البيضاء، 1989، ص.85.

108 محمد عبد المطلب، جدلية الحضور الشعري والنّقدي، إبداع، ع.01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، يناير 1999، (ص.46 ـ 56)، ص.46.

109 ينظر: ممدوح السكاف، ميخائيل نعيمة شاعراً: بين المنهج النقدي والتطبيقات الإبداعية، المعرفة، ع.280، دمشق، يونيو 1985، (ص.50 ـ 75)، ص.52 ـ 53.

المنارة للاستشارات

النقد باعتباره خطاباً مؤسّساتيّاً (مدرسيّاً وأكاديميّاً) ليس أكثر. وهذا لا ينتقص من فضله. والدليل على ذلك سوف نصنِّف كثيراً من جهود جابر عصفور الترجميّة في هذا الإطار. ويمكن استباق ذلك بإيراد ما يتكرّر عنده كلّما قدّم لترجمة عمل نقدي حيث يسمِّي تقنياته وتكييفاته وحذوفه[110]. ففي الخطاب النَّقدي يظهر المتكلِّم جليّاً، ويُنسِب إلى نفسه أكبر قدر من الأطروحات التي ستميِّز عمله النقدي. ويتحدّد مستوى النقاد بجواز إطلاق على أجوَدِهم لقب " صانعي الخطاب النقدي ". وهم الذين يكونون قد بلغوا حدّاً من النضج الفكري حيث تُصبح لديهم اهتمامات شموليّة وتجريديّة ورسالة سامية، تشغل مَن يُعنون بشؤون الأدب والفكر والثقافة عامّة ـ وقد تحتكر ساحتها ـ بما تقترحه من رؤية واضحة ومنهج أصلح؛ وذلك بفضل المصطلحات النقدية نفسها أي تلك الأدوات التي أطلق عليها عزيز الشرقاوي " علامات مرورهم "[111]. ويتعذّر ذلك على من لم يبلغ بعد تلكم المرتبة ولكن لا يعدموا تسمية النقاد. لذا ينبغي الاحتراز في استعمال مصطلح (الخطاب النّقدي) الذي لا ينطبق دائماً على النقاد كلِّهم لا

110 حيث يصرِّح: « ولَعلّي في حاجة إلى القول ـ في نهاية هذا التّعريف ـ إنّي حرصت في الترجمة على الوضوح (التّعليمي) حتى لو اضطررت إلى تجاوز الحرفية، وحذفت الإشارات المباشرة إلى أسماء المصادر والمراجع من الهوامش، لأنّها لا تفيد إلاّ القارئ الذي يعرف الإنجليزية »؛ يُنظَر: جابر عصفور، ضمن تيري إجلتون، الماركسيّة والنَّقد الأدبي، تقديم وترجمة جابر عصفور، فصول، م.5/ ع.3 (الأدب والأيديولوجيا/ج.1)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، إبريل 1985، (ص.20 ـ 43)، ص.21.

111 ينظر: عزيز الشرقاوي، وضعنا النَّقدي؛ وضعنا الثّقافي، الثقافة الجديدة، ع.11/10، المحمّدية (المغرب)، 1978، (ص.53 ـ 65)، ص.62.

المنارة للاستشارات

من حيث الحجم فيما يخصّ الإنتاج والتأليف ولا من حيث الكيفيّة فيما يتعلّق بدرجة تلك الشمولية وذلك التجريد وقيمة الرسالة.

إنّ هذا الفصل بين الشقّيْن ليس وقفاً على مجال النّقد. بل نجده أيضاً في كثير من المجالات، فعلى سبيل المثال ترد على مسامعنا مثلَ هذه الاستعمالات: الخطاب الأدبي[112]، السياسة والخطاب السياسي، الإشهار والخطاب الإشهار، الكولونيالية والخطاب الكولونيالي، الأيديولوجية والخطاب الأيديولوجي، الإعلام والخطاب الإعلامي، الدين والخطاب الديني؛ ونقرأ لمثيلاتها، على غرار: اللسانيات والخطاب اللساني، القانون والخطاب القانوني، التعليم والخطاب التعليمي.

ولقيد السمة المشتركة بين هذه المجالات في انطوائها على إمكانية الانشقاق إلى شقين حميمين ـ وليس من باب أنّ أحدهما نظري والآخر تطبيقي ـ هو وجود ما يسمى اللغة الواصفة التي ترجع في كلّ مرّة. إذ يستعين الخطاب حيثما يحلّ بما يسمّى اللغة الواصفة، بل هو ما يُسهم في تشكيلها، فيعمد التأسيس لها، ثمّ يقتنع ببلورتها. ويرجع الفضل إلى المعجميين والمصطلحيين في عملية جمع شتات هذه اللغة لتخزينها في بنوك مصطلحية أو طبعها في شكل معاجم أحادية اللغة أو مزدوجة أو حتى في موسوعات مفهوميّة (دوائر العلوم).

112 ينظر على سبيل المثال: محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية: دراسة في نقد النقد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

المنارة للاستشارات

وهذا الانشقاق ليس بدعة خاصة بالخطاب النقدي بحيث نُلفي لدى بعض المجالات الفكرية السنة نفسها وقابلية نحو الانشعاب إلى شطرين ـ شطر يجسد رصيده النظري من جهة ومظهره التطبيقي من جهة ثانية[113]، وآخر يشكّل ضرباً من خطاب يدور في مداره، ولاسيما إذا كان منطبعاً بتراث ثقافي ـ على غرار النقد العربي بقديمه وحديثه ـ من شأنه أن يخدم القضية كما يمكن له ـ وعلى عكس ذلك ـ أن يُعتِّم الرؤية أمام جلاء صورة المجال المنشعب. إذ كذلك ترسّخ سنّةً مؤكَّدة عند باحثين ينتمون إلى أرسخ الثقافات، اعتادوا الخوض ـ مثلاً ـ في التّرجمة وما يحاك حولها من خطابات، وأنواع التداخلات والتفاعلات القائمة بين هذه وتلك[114]، حتى صار من الطبيعي أن تخلف التجاذبات والتنافرات الحاصلة بين المجالين (أي العلم وخطابه) شعبة من رصيد تستثمر فيه مختلف الفئات المتصلة

113 ولا ندّعي التوحيد المطلق بين الجانبين النظري والتطبيقي حينما وضعناهما في بوتقة هذا الشطر.

114 ينظر: إدوين غينتسلر، في نظرية الترجمة: اتجاهات معاصرة، ترجمة عبد العزيز مصلوح، المنظمة العربية للترجمة ـ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص.370 ـ 378. حيث يُمعِن المؤلِّف في تفكير جاك دريد (Jacques Derrida) حول الترجمة المنتِج لخطابٍ يعدّ تعقيباً على التصور الذي طرحه هيدغر (Heideger) عن مسألة تعرف في رطانة ذلك الخطاب بما هو موجود وإن كان غير موجود (Which Is there and yet « Is » not)، وهو التصور الذي توصل إليه هذا الفيلسوف عقب تأمله في عملية الترجمة: ما أدّى بالأول إلى استثماره وهو يفرغ إلى سكّ مصطلح أعلن عنه في كتابه " *هوامش الفلسفة / Margins of Philosophie* ". ولم يصادف في هذا الباب باباً إلا طرقه حتى استدعى تأملات ميشال فوكو (Michel Foucault) في الموضوع، معرِّجاً على تعليقات رودولف غاشيه (Rodolphe Gasché) الدائرة حول ذلك كله منوِّهاً بالخطاب المنسوج عن الترجمة والذي من شأنه أن يجانب المسائل الجوهرية العالقة والتي لم يفلح العلم في تناولها بعدما طرحها إشكاليات لا يزال حلها أمراً مرتقباً.

المنارة للاستشارات

بهما انطلاقا من المتعلِّمين لفن الترجمة، مرورا بمحلِّلي منتَجاتها ونقادها، حيث يستهدف تحليل الترجمات رفع ما يعتورِها من لبسٍ عند بعض المرتادين عليها، ومن أجل المزيد من الفهم المفقود عند الآخرين؛ وفي سبيل التدارس والمقارنة في أحسن التقدير حيث تُصبِح الترجمات مثار المناقشات والجدل بل تستحيل مدوّنات تُنتقَد (كما قد يستفاد منها دروسٌ في التّرجمة). ويُسوِّغ الاحتمال الأخير مدى تحوّل (علم) الترجمة من مجالٍ نظريٍّ إلى مجالٍ ينشد المقاربة التطبيقيّة للترجمات التي تُسخَّر كمدوّناتٍ يصبح الكشف عن العيوب التي تكتنِفها غايةً لا في نفسِها بل من أجل تعلّم كيفيّة الترجمة. ويُمكِن تشبيه الأمر بالتّرجمة البيداغوجيّة والتّعليميّة الّتي ترمي إلى نقل المعنى مِن اللّغة المصدر إلى اللّغة الهدف لا بهدفٍ تبليغيٍّ بقدر ما هو توضيحيّ، كتسخير عمليّة التّرجمة في سبيل تعليم لغةٍ ما، إذ تُستعمَل اللّغة المصدر لشرح قضايا تخصّ اللّغة الهدف بما أنّ الأولى ترمي إلى وصف الثّانية[115].

وكذا بالتعريج على الرافد الذي يُلجأ فيه إلى علم الاجتماع أو (Sociologie de la traduction) كما اعتاد المتتبِّعون لهموم الترجمة أن

[115] ينظر: Elisabeth Lavault, Fonctions de la traduction en didactique des langues, Ed. Didier érudition, Paris, 1985, p.09. وكذلك ينظر: Germaine Forges & Alain Braun, Didactique des langues, traductologie & communication, Ed. De Boeck Université, Paris & Bruxelles, 1998, p.13.

المنارة للاستشارات

يسموه[116]؛ وصولا إلى الممارسين لها، مع أن هذه الفئة تفضل عادة الاشتغال وفق الحدس والحِرفية اللذين يعرف كل من له تجربة في نطاق الترجمة أنهما يمثلان نصيبا كبيرا من التفكير الإجرائي والاختباري رغم قيام أركان العلم في بعده النظري[117]. ناهيك عن بعض المسائل الابستيمولوجية المطروقة في عدّة مجالاتٍ تتّصِل بموضوع الترجمة كأن يبحث دارسٌ ما في فضل اللّسانيات عليها[118]، وكذا ما يتعلق بقضايا التهيئة اللغوية والثقافية لأيّ بلد كحركة الترجمة في سياق العالم العربي[119].

[116] ينظر: Jean-Marc Gouanvic, Ethos, éthique et traduction : vers une communauté de destin dans les cultures, TTR : traduction, terminologie, rédaction, vol.14, n°2 (Antoine Berman aujourd'hui Dir Alexis Nouss), Université de Québec, Ed. Les Presses de l'Université de Québec, Québec, 2001, (p.31-47), p.31.

[117] ينظر: Antoine Berman, La traduction et ses discours, Meta, vol. 34, n° 4, Département de linguistique et de traduction, Université de Montréal, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, Québec, Décembre 1989, (p.672-679), p.672.

[118] أفضل مؤلَّف تصدّى لهذه القضيّة: H. Chuquet et M. Paillard, Approche linguistique des problèmes de traduction, Ed. Orphrys, Paris, 1989. كما كان لجورج مونان فضلُ السبق إلى الزاوية اللّسانيّة في حلّ المشكِلات الترجميّة؛ يُنظَر: Georges Mounin , Les problèmes théoriques de la traduction, Ed. Gallimard, Paris, 1963.

[119] كما تعرّض إليه مقال: Jarjoura Hardane, La linguistique dans la formation des traducteurs arabes, Meta, vol. 50, n° 1 (Enseignement de la traduction dans le monde Dir Christian Balliu), Département de linguistique et de traduction, Université de Montréal, Ed. Les Presses de l'Université de Montréal, Québec, 2005, (p. 137-144).

المنارة للاستشارات

ونلفي في مساحات ثقافية أخرى من يتصدّر واجهات الكتابة عن التاريخ كعلم له باحثون ولكونه قطاعا يستقطب مهتمين به، في حين يتعاطى الخطاب حوله وعن تراثه وآفاقه وتحصيلاته فريق من المثقفين والمفكرين وحتى الفلاسفة وعلماء الاجتماع ورجال الدين والمعلمين والأساتذة وغيرهم، إلى أن يسفر العلم وخطابه عن حصيلة تمثل مراكمة العمل على الصعيدين في آن معا. ولنا عبرة فيما مهّد له ابن خلدون من طريق انتحاء هذا النحو من الكتابة في مقدمته التي ليست إلا ضربا من خطاب حول علم التاريخ في مرحلته التأسيسية.

ومن شأن مثل هذا الخطاب أن يُبَلْوِر مفاهيم نقديّة مديدة ويكشِف عن تجربة نقديّة عميقة، وذلك بما توفِّره لغتُه الواصفة من إمكانيات وطاقات دلالية ومفهوميّة. وفي خضمّ تلك التجربة تقوم استراتيجية المثاقفة على جملة مِن الإجراءات التي من خلالها يتمّ ترشيح الأصيل وطرح الدخيل. وفي هذا الشأن يقول عزيز الشرقاوي منذ السبعينيات: « إنّ كلَّ مصطلح أو منهج يحمل في أحشائه حتماً خلفيّة فكريّة تختصر نفسَها ورؤيتها وتحليلها من خلال المصطلح النَّقدي والمنهج الذي يلائمه ويستعمل في إطاره ويتبادل الخدمة معه. فيستحيل فهمُ كلّ نقد أو منهج إلى فهمٍ لمصطلحاته نفسها أي أدواته وعلامات مروره إن شئنا القول. كلّ نقد يختصّ نفسه في المصطلح النّقدي، وكلّ مصطلح نقدي لا يتعدّى كونه المجيب أو أداة الإجابة على السؤال الذي يطرحه مسبقاً أيُّ منهجٍ نقديٍّ قبل البدء في الجواب عليه من خلال دراسة أو تحليل المادة المطروحة عليه للنّقد.

المنارة للاستشارات

في هذا الصدد، يصبح كلُّ نقدٍ بمثابة ردّ فعل اجتماعي ـ ثقافي، لعطاء فردي معبِّر بالضّرورة عن جماعة وعن مرحلة. وهذا النّقد ـ الردّ لابدَّ أن يطبع الطبقة الاجتماعيّة التي يصدُر منها وإليها والتي لا يتجاوز النّاقد أيّاً كان، كونه أداته المطيعة في هذا الرد وبهذا الشكل أو ذلك »[120]. وكذلك يتعيّن نشاط الخطاب النّقدي في مقابل عمليّة النّقد كنتيجة نوعيّة، وذلك على الرغم من ضرورة الانطلاق من هذه الحيثيّة ذاتها، أي باعتباره (الخطاب النقدي) محصولاً فكريّاً ونظريّاً (ثقافيّاً) تفرزه هذه العملية النقديّة في حدِّ ذاتها؛ فهي لا يُنظَر إليها كحاصل تحصيل، بل ينفرد بها بعض النقاد لأسباب يهمّ دراستها.

خاتمة

نستنتج مما سبق عرضه أنّ الخطاب النّقدي يولَّد من خلال ممارسة النّقد وبحكم التعاطي مع تجارب الغير المختلفة في مجال الكتابة، ولكن بشرط أن يأتي المولود الجديد في صيغٍ محدّدة لا تبتعد عن اللغة الواصفة التي تحتكم إلى المناهج النقدية المختلفة. وأهمّ ما يرقى بأيّة ممارسة نقديّة إلى مصفّ الخطاب النّقدي هو الإمكانية المتاحة لصاحب هذا الخطاب النّقدي أن يعبِّر عن آرائه (الفكرية والثقافية)، ولاسيّما ـ أو حتّى ـ في حقل ممارساته النقديّة: ما يكفل له طابعاً خاصّاً، وبالتالي يتمتّع بأصداء على مستويات عالية.

[120] عزيز الشرقاوي، وضعنا النَّقدي؛ وضعنا الثّقافي ...، ص.62.

المنارة للاستشارات

ولاحظنا مظاهر لهذا الطرح فيما أنبأ به جابر عصفور ولكن بتسمية مغايرة وهي (الخطاب الثّقافي)، من حيث نستخلص مفهوم (الخطاب) وصولاً إلى قوله: « [..] ومن هذا المنظور، يتّصِف كلُّ خطابٍ بدرجة من شمول الرؤية التي تصله بمعنى الاستراتيجية، ويتضمّن عناصِر ومكوِّنات متباينة، تجمع بينها وحدة التنوّع ووحدة التوجّه الوظيفي أو الأهداف »[121]. من هنا نستخلص أنّ الخطاب النقدي كلام موجَّه عن وعيٍّ شامل واستراتيجية محددة حامل لرسالة هادفة. غير أنّ الباعث على ذلك هو التكوين والتجارب والمكانة الاجتماعية التي يحظى بها الناقد صاحب الخطاب النقدي، وجابر عصفور يقارب بن هذا الأخير وكذا المثقَّف.

[121] جابر عصفور، نحو خطابٍ ثقافيٍّ جديد ..، ص.221.

المنارة للاستشارات